الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١١٣ — ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٥ — السنة الثالثة

3 me Année, No. 113.

Lundi-2-9-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

صـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١١٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ٤ جمادى الثانية سنة ١٣٥٤ — ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٥ » السـنة الثالثة

فهرس العــــدد

مصر والأمم الشرقية

أثارت زيارة سمو الأمير سعود ولى عهد المملكة السعودية لمصر مسألة قديمة لا تزال منذ أعوام موضع الدهشة والتساؤل ، هى مسألة العلائق الرسمية بين مصر والمملكة السعودية ؛ فمصر لم تعترف حتى اليوم بصفة رسمية بالمملكة السعودية ، أعنى بحكومة نجد والحجاز ، كما أن المملكة السعودية لا تعترف من جانبها بالدولة المصرية ؛ ولا توجد دولة أخرى من دول العالم لا تعترف بها مصر سوى روسيا السوفيتية

وقد كشفت الحفاوة الودية الرائعة التى استقبل بها الأمير سعود فى مصر ، واشتركت فيها الحكومة بصفة غير رسمية ، عن مبلغ ما يعتور العلائق بين مصر والمملكة السعودية من شذوذ ونقص ؛ وكانت حماسة الأمة المصرية فى استقبال ضيفها العظيم أكبر دليل على ما تكنه مصر للأمة العربية الشقيقة من صادق الحب والإخاء ، وعلى مبلغ ما تشعر به من بواعث الأسف لهذا الوضع الشاذ الذى ما زال يغشى صفاء العلائق الرسمية بين الدولتين

لماذا لا تبادر مصر بالاعتراف بالحكومة السعودية ، وقد

اعترفت بها دول العالم جميعاً ؟ هذا ما نتساءل عنه منذ أعوام . إن مصر تستطيع أن تبرّر عدم اعترافها بروســيا السوفيتية ، وهى الدولة الوحيدة الأخرى التى لا تعترف بها ، بما شاءت من الحجج والمعاذير ؛ ولكن موقفها من المملكة السعودية مما يصعب فهمه وتعليله . وإذا لم يكن ثمة موضع للتحدث عن التبعات فى هذا المقام ، فانه مما يجدر ذكره أن جلالة ابن السعود قد أبدى فى كل فرصة استعداداً يحمد لتنظيم العلائق بين مملكته وبين المملكة المصرية . وقد تكون ثمة مسائل وتفاصيل لا بد من تسويتها لإقامة الروابط الرسمية بين الحكومتين على أسس وطيدة مرضية ؛ ولكنا لا نعتقد أن هذه المسائل من الخطورة بحيث يتعذر تذليلها وحلها

ولسنا فى حاجة لأن ننوه فى هذا المقام بما يجمع بين الأمتين من الروابط التاريخية القديمة ، ولا بما يوثق بينهما من أواصر الدم والدين واللغــة ومختلف المصالح المعنوية والمادية ؛ وإذا كان مما يدعو إلى الغبطة أن الأمتين رغم هذا الشذوذ القائم فى علائقهما الرسمية ، تقــدر كلتاهما واجبها نحو الأخرى ، وتعاملها معاملة الأخت الشقيقة ، بل وتبعث إليها بممثل غير رسمى يتمتع فعلاً بجميع المجاملات الممكنة ، فإنه لابد من تتويج هذه الحالة الفعلية القائمة بالصبغة الرسمية الصريحة حتى يزول كل ريب والتباس فى علائق الدولتين

* * *

وثمة ملاحظة أخرى فى موقف مصر من الأمم الشرقيــة الشقيقة هى تصرفها فى مسألة تبادل التمثيل السياسى مع أفغانستان ؛ فقد أنشأت أفغانستان لهـا فى مصر منذ أعوام مفوضية خاصة وبعثت إليها بوزير مفوض ؛ ولبثت أفغانستان تنتظر مدى أعوام أن تعاملها مصر بالمثل ، وأن تقوم فى كابول مفوضية مصرية يتولى أمرها وزير مصرى مفوض ؛ ولكن الحكومة المصرية رأت أخيراً أن تكتفى بأن تنشئ فى كابول مفوضـية اسمية يتولى أمرها « قائم بالأعمال » وأن تسند إلى وزير مصر المفوض فى طهران ، فاضطرت الحكومة الأفغانية إزاء ذلك أن تلغى مفوضيتها فى مصر ، وأن تبعث بوزيرها المفوض إلى جهة أخرى ، وأن تكتفى كالحكومة المصرية بمفوضية اسمية يتولاها « قائم بالأعمال » وتسند إلى وزير أفغانستان المفوض فى تركيا

وهذه نتيجة يؤسف لهـا ؛ خصوصاً إذا ذكرنا أن مصر فى الوقت الذى تقدم فيه على هذا التصرف إزاء أفغانستان ، وفى الوقت الذى تكتفى فيه بأن يمثلها فى العراق « قائم بالأعمال » ، تنشئ لها مفوضية جديدة فى النمسا يتولاها وزير مفوض خاص

* * *

هـذه مآخذ فى سياسة مصر الخارجية نحو الأمم الشرقية ، كنا نود أن تنزه عنها وأن ترتفع فوقها ؛ فمصر وحدة بارزة فى هذه الكتلة الشرقية التى تضطرم اليوم بروح جديدة ، وتحفزها آمال وأمانى مشتركة ، وتجمع بينها جميعاً صلات التاريخ والأجيال ، وسياسة مصر نحو هذه الأمم الشقيقة يجب أن تقوم على اعتبارات معنوية سامية ترتفع فوق كل الاعتبارات المادية

ويجب أن تذكر مصر دائماً أنها تضطلع بتبعات خاصة نحو العربيــة والاسلام ؛ فهى تحمل رسالة الثقافة العربية ، وإليهـا تتجه أنظار الأمم العربية ، تقفو أثرها وتتعاون معها فى إحياء الآداب العربية ، ثم هى تحمل زعامة الاسلام الدينية والاجتماعية ، وإليها تتجه أنظار الأمم الاسلامية لتتعاون معها فى حماية التراث الاسلامى المشترك ؛ وفى تضامن مصر مع الأمم العربية والاسلامية فى صوره الممكنة قوة لا يستهان بها ؛ وهذا المركز الخاص الذى تتبوأه مصر بين الأمم العربية والاسلامية يحتم عليها أن تكون قدوة فى حسن التفاهم مع هذه الأمم الشقيقة التى تلتف حولهـا وتحبوها بعطفها وتقديرها

فهل لنا أن نؤمل أن تتجه سياسة مصر الخارجية إلى تقدير هذه العوامل والاعتبارات الخطيرة ؟ وهل نشهد فى القريب العاجل عقد معاهدة الصداقة المصرية الحجازية ؟ هذا ما نرجو لخير مصر ، وخير العروبة والاسلام

« *** »

في الربيع الأزرق (١)

خواطر مرسلة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

ما أجملَ الأرضَ على حاشيةِ الأزرقَين البحر والسماء ؛ يكادُ الجالسُ هنا يظنُّ نفسَه مرسوماً في صورة إلٰهية

* * *

نظرتُ إلى هذا البحر العظيم بعينَيْ طفلٍ يتخيل أن البحر قد مُلِيءَ بالأمس ، وأن السماءَ كانت إناءً له ، فانكفأ الاناءُ فاندفق البحر ؛ وتَسرَّحتُ مع هذا الخيال الطفليّ الصغير فكأنما نالني رشاشٌ من الاناء . . . .

إننا لن ندركَ رَوعةَ الجمال في الطبيعة إلا إذا كانت النفسُ قريبةً من طفولتها ، ومرَح الطفولة ، ولعبها ، وهَذَيانها

* * *

تبدو لك السماءُ على البحر أعظمَ مما هي ، كما لو كنتَ تنظر إليها من سماءٍ أخرى لا من الأرض

* * *

إذا أنا سافرتُ جِئتُ إلى البحر ، أو نزلتُ بالصحراء ، أو حللتُ بالجبل ؛ شعرتُ أولَ وهلةٍ من دهشة السرور بما كنت أشعر بمثله لو أن الجبلَ أو الصحراءَ أو البحرَ قد سافرت هي وجاءت إليّ

* * *

في جمال النفس يكون كلُّ شيء جميلا إذ تُلقي النفسُ عليه من ألوانها ، فتنقلب الدارُ الصغيرةُ قصراً لأنها في سَعَة النفس لا في مساحتها ، وتَعرفُ لنور النهار عذوبةً كعذوبة الماء على الظمأ ، ويظهر الليل كأنه معرضُ جواهرَ أقيم للحُور العِين في السماوات ، ويبدو الفجرُ بألوانه وأنواره ونَسماته كأنه جنةٌ سابحة في الهواء

في جمال النفس ترى الجمالَ ضرورةً من ضرورات الخليقة ويْ كأن الله أمرَ العالَم ألا يَعبِسَ للقلب المبتسم

* * *

(١) هذه تسمية جديدة للمصيف على ساحل البحر

أيامُ المَصيف هي الأيامُ التي ينطلق فيها الانسانُ الطبيعيُّ المحبوسُ في الانسان ؛ فيرتدُّ إلى دهرِه الأول دهرِ الغابات والبحار والجبال

إن لم تكن أيامُ المصيف بمثل هذا المعنى ، لم يكن فيها معنى

* * *

ليست اللذة في الراحة ولا الفراغ ، ولكنها في التعب والكَدْح والمشقة حين تتحولُ أياماً إلى راحة وفراغ

* * *

لا تتمُّ لذةُ الانتقال من بلد إلى بلد ، إلا إذا انتقلت النفس من شعور إلى شعور ؛ فاذا سافر معك الهمُّ فأنت مقيمٌ لم تبرحْ

* * *

الحياةُ في المصيف تثبت للانسان أنها إنما تكونُ حيث لا يُحْفَلُ بها كثيراً

* * *

يشعر المرءُ في المُدُن أنه بين آثار الانسانِ وأعماله ، فهو هناك في رُوح العَناء والكَدْح والنزاع ؛ أما في الطبيعة فيحُسُّ أنه بين الجمال والعجائب الالٰهية ، فهو هنا في رُوح اللذة والسرور والجلال

* * *

إذا كنت في أيام الطبيعة فاجعل فكرك خالياً وفرِّغه للنَّبت والشجر ، والحجَر والمَدَر ، والطير والحيوان ، والزهر والعُشْب ، والماءِ والسماء ، ونورِ النهار وظلام الليل ، حينئذ يفتح لك العالَم بابَه ويقول : ادخل

* * *

لطفُ الجمال صورةٌ أخرى من عظَمَة الجمال ؛ عرفتُ ذلك حينما أبصرتُ قطرةً من الماء تلمعُ في غصن ، تخيَّل إليّ أن لها عظمة البحر لو صَغُر فعُلِّق على ورقة

* * *

في لحظة من لحظات الجسد الروحانية ، حين يفورُ شِعرُ الجمال في الدم — أطلتُ النظرَ إلى وردة في غصنها زاهيةٍ ، عطرة ، متأنقة ، متأنثة ؛ فكدت أقول لها : أنتِ أيتها المرأة ، أنت يا فلانة . . .

* * *

أليس عجيباً أن كل انسان يرى في الأرض بعض الأمكنة

كأنها أمكنةٌ للروح خاصة ؛ فهل يدلّ هـذا على شيء إلا أن خيالَ الجنة منذ آدمَ وحوّاء ، لا يزال يعمل فى النفس الانسانية ؟

* * *

الحياةُ فى المدينـة كشرب الماء فى كوب من الخزف ؛ والحياة فى الطبيعة كشرب الماء فى كوب من البلّـور الساطع ؛ ذاك يحتوى الماءَ وهذا يحتويه ، ويُبدى جمالَه للعين

* * *

وا أسفاه ، هذه هى الحقيقة : إن دقّـةَ الفهم للحياة تُـفسدها على صاحبها كدقة الفهم للحب ؛ وإن العقل الصـغير فى فهمه للحب والحياة ، هو العقلُ الـكاملُ فى التذاذه بهما . وا أسفاه ، هذه هى الحقيقة

* * *

فى هذه الأيام الطبيعية التى يجعلها المصيفُ أيامَ سرورٍ ونسيان يشـعرُ كلُّ إنسان أنه يستطيع أن يقول للدنيا كلمةَ هزلٍ ودُعابة . . .

* * *

من لم يرزق الفكرَ العاشقَ لم يرَ أشياءَ الطبيعة إلا فى أسمائها وشِياتِها ، دون حقائقها ومعانيها ؛ كالرجل إذا لم يعشق رأى النساء كلّهن سواءً ؛ فاذا عشق رأى فيهن نساءً غير من عرَف ، وأصبحن عنده أدلةً على صفات الجمال الذى فى قلبه

* * *

تقوم دنيا الرزق بما تحتاجُه الحياة ؛ أما دنيا المصيف فقائمةٌ بما تلذُّه الحياة ؛ وهذا هو الذى يغير الطبيعة ويجعلُ الجوَّ نفسه جوَّ مائدة ظُـرفاء وظريفات . . .

* * *

تعمل أيامُ المصيف بعد انقضائها عملاً كبيراً ، هو إدخالُ بعض الشعر فى حقائق الحياة

* * *

هذه السماءُ فوقنا فى كل مكان ، غير أن العجيبَ أن أكثر الناس يرحلون إلى المصايف ليروا أشياءَ منها السماء . . .

* * *

إذا استقبلتَ العالم بالنفس الواسعة رأيتَ حقائقَ السرور تزيد وتتسع ، وحقائق الهموم تصغُـرُ وتضيق ، وأدركتَ أن دنياك إن ضاقت فأنت الضيّقُ لا هى

* * *

فى الساعة التاسعة أذهبُ إلى عملى ، وفى العاشرة أعملُ كيت ، وفى الحادية عشرةَ أعملُ كيتَ وكيت ؛ وهنا فى المصيف تفقد التاسعةُ وأخواتُها معانيَها الزمنيةَ التى كانت تضعها الأيامُ فيها ، وتستبدلُ منها المعانيَ التى تضعها فيها النفسُ الحرة

هـذه هى الطريقة التى تُـصنع بها السعادةُ أحياناً ؛ وهى طريقة لا يقدر عليها أحدٌ فى الدنيا كصغار الأطفال

* * *

إذا تلاقى الناسُ فى مكان على حالة متشابهـة من السرور وتوهمه والفكرة فيه ؛ وكان هذا المكانُ مُـعَـدّاً بطبيعته الجميلة لنسيان الحياة ومكارهها ـ فتلك هى الرواية وممثلوها ومسرحها (١) أما الموضوعُ فالسخريةُ من إنسان المدنية ومدنية الانسان

* * *

ما أصدَق ما قالوه : إن المرئىَّ فى الرائى . مرضتُ مدةً فى المصيف ، فانقلبت الطبيعةُ العروسُ التى كانت تتزينُ كل يوم إلى طبيعة عجوز تذهب كل يوم إلى الطبيب . . .

شاطىء سيدى بشر (اسكندرية) مصطفى صادق الرافعي

(١) يظن صديقنا العلامة الـكبير الأمير شكيب أرسلان أن المسرح لدار التمثيـل غير صحيح . وأن صوابها المزرح ولـكن الصاحب بن عباد اسـتعملها فى قريب من معنى دار التمثيل وأصلها من مرادفات ندى القوم ومجتمعهم

الى الاستاذ ف . ط . بدمشق

لا أستطيع أن أشكرك بما أنت أهله وأرجو بعون الله وتيسيره أن أكون عند ظنك ، ولـكن احذرى هذا الوهم الـكبير ، وهم المثل الأعلى ، فـكل الرجال مثل أعلى فى أول الرواية . . . الرافعى

حول النزاع الايطالي الحبشي

عصــــبة الأمم

وما تستطيع أن تفرضه من العقوبات

بقلم باحث دبلوماسي كبير

تعاني عصبة الأمم أزمة دقيقة من جراء تعرضها للنزاع بين ايطاليا والحبشة ؛ ولم يكن في وسع العصبة أن تقف جامدة أو أن تتنحى عن بحث مشكل يقع في صميم اختصاصها بمقتضى « الميثاق » وتثيره دولتان كلتاهما عضو في العصبة ، وعصبة الأمم تعرف منذ البداية أنها تواجه في المشكلة الايطالية الحبشية أزمة خطيرة ، بل تواجه محنة قد يقوض الفشل في درئها صرح العصبة ، وكل المبادئ الدولية التي يقوم عليها ، وتعرف منذ البداية أيضاً أنها لن تستطيع أن تقوم في معالجة هذه الأزمة بدور فعال ، أو باجراء حاسم ، ولكنها أيقنت في نفس الوقت أن قليلاً من الشجاعة في مواجهة الموقف ، وأن تطبيق بعض الاجراءات النظرية التي ينص عليها ميثاق العصبة في مثل هذه الأحوال ، وأخيراً أن محاولة اكتساب الوقت في بعض المجادلات الفقهية قد تنتهي بانقاذها من مأزق الحياة والموت

وقد أبدت العصبة هذا القليل من الشجاعة فاستمعت إلى نداء الحبشة في بحث النزاع ، وإن لم تبحثه إلا في الحدود الضيقة التي ارتضتها ايطاليا ، وسعت إلى تطبيق المادة الثالثة عشرة من الميثاق ، واتفق الطرفان على محاولة اجراء نوع من التحكيم ، وألفت بالفعل لجنة تحكيم مشتركة تمثل الفريقين المتنازعين ؛ ولكن الحوادث تطورت بسرعة ، وأكدت ايطاليا وما تزال تؤكد بمنتهى الصراحة أنها لا تبغي بديلا بافتتاح الحبشة والاستيلاء عليها ، وأنها سوف تلجأ لتحقيق غايتها بالقوة القاهرة ، وأنها لن تني عن مشروعها أمام أي تدخل أو أية قوة في العالم ؛ وهكذا تحطمت جميع الآمال التي علقت على تدخل العصبة ، وعلى لجنة التحكيم ، ولن يحول دون اضطرام الحرب في شرق أفريقية سوى معجزة ، أو تطور في الحوادث لايخطر ببال انسان ، ولن تحدث هذه المعجزة أو هذا التطور الخارق

ونحن نعرف كيف حاولت السياسة البريطانية جهد استطاعتها أن تحول دون اضطرام الحرب في هذه المنطقة التي تجاور عدة من الأملاك البريطانية ، ويهدد حلول ايطاليا فيها وادي النيل من منبعه إلى مصبه ، ويضع السودان ومصر في مأزق خطر ، ويجعلهما عرضة لأخطار النزعة الاستعمارية التي تضطرم بها ايطاليا ، ويهدد من جهـــة أخرى مواصلات الامبراطورية البريطانية في البحر الأحمر ، وفي عدن وباب المندب بصفة خاصة ؛ ولكن السياسة البريطانية لم توفق رغم ما بذلته من الجهود وما عرضته من الحلول إلى اقناع السياسة الايطالية الجامحة المتوثبة بالعدول عن مطامعها وأحلامها العريضة في اقامة امبراطورية استعمارية ضخمة في شرق أفريقية

والآن ، وقد فشلت كل محاولة للتسوية السلمية ، ولم يبق سوى اضطرام هذه الحرب الهمجية التي تصر الفاشستية على اضرامها تحقيقاً لمطامعها ومشاريعها المثيرة في افتراس الشعوب الآمنة ، تحاول السياسة البريطانية أن تجد سبيلاً لمقاومتها وتحطيم مشاريعها ، لاحباً بالحبشة ، أو نصرة لقضية السلام في ذاتها ، ولكن توسلا إلى درء الأخطار التي تهدد سيادتها ومصالحها الامبراطورية في البحر الأبيض المتوسط وفي شرق أفريقية إذا استطاعت الفاشستية أن تفوز ببغيتها في افتتاح الحبشة . وقد تستطيع السياسة البريطانية أن تشل حركة الفاشستية ببعض الاجراءات والمساعي التمهيدية ، وقد لاتحجم عن أن تخوض معها غمار الحرب إذا لم تجد مناصاً من خوضها

ومن هـذه الاجراءات والمساعي التمهيدية التي تفكر انكلترا في التذرع بهـا لرد الفاشستية عن عدوانها ، محاولة توقيع العقوبات الدولية التي ينص عليها ميثاق عصبة الأمم . وقد كثرت الاشارة أخيراً إلى هذه العقوبات ومداها ومبلغ ما ينتظر من تأثيرها إذا طبقت . ولهذا نرى مناسبة لأن نتناولها بشيء من الشرح والتفصيل ، فنقول إن المادة (١٥) من ميثاق العصبة تنص على الاجراءات والقرارات التي يمكن اتخاذها لتسوية المنازعات الدولية التي قد تقع بين أعضاء العصبة عن يد العصبة

ذاتها وما يمكن أن يقوم به مجلس العصبة فى هذا السبيل . وتنص المادة التالية أى المادة (١٦) على العقوبات الدوليـة التى يمكن توقيعها على الدولة التى تخالف تعهداتها وتلتجئ إلى الحرب ، وإلى القارئ نص هذه المادة الشهيرة كاملاً :

« إذا التجأ عضو من أعضاء العصـــبة إلى الحرب خلافاً للتعهدات المنصوص عليها فى المادتين ١٢ و ١٣ أو المادة ١٥ ، فانه يعتبر فعلاً قد ارتـكب عملا حربياً ضد كل أعضاء العصبة الآخرين . ويتعهد هؤلاء أن يقطعوا فى الحال معه كل علائقهم التجارية والمالية ، وأن يحظروا كل علائق بين رعاياهم وبين رعايا الدولة التى خرقت الميثاق ، وأن يقطعوا كل المواصلات المالية والتجارية والشخصية بين رعايا هـذه الدولة وبين رعايا أية دولة أخرى سواء أكانت عضواً فى العصبة أم لا

« وفى هـذه الحالة يجب على المجلس (مجلس العصبة) أن يوصى إلى الحـكومات المختلفة ذات الشأن بتقديم القوى العسكرية أو البحرية أو الجوية التى يساهم أعضاء العصبة فى تقديمها للقوى المسلحة التى تقوم بالعمل على احترام تعهدات العصبة

« ويتعهد أعضاء العصبة أيضاً أن يعاونوا بعضهم بعضاً فى تطبيق الاجراءات الاقتصادية والمالية التى تتخذ طبقاً لهذه المادة والتى يراد بها أن تخفض إلى أدنى حد ما يمكن أن يترتب عليها من الخسائر والمضار . ويتعهدون بالتعاون أيضاً فى مقاومة كل إجراء خاص يوجه إلى أحدهم من جانب الدولة التى خالفت الميثاق ؛ ويتخذون الاجراءات اللازمة لـكى يسهل المرور فى أراضيهم لقوات أى عضو من أعضـاء العصبة يساهم فى العمل المشترك الذى يقصد به العمل على احترام تعهدات العصبة

ويمكن أن يفصل من العصبة كل عضو ينتهك أحد التعهدات المترتبة على هذا الميثاق . ويصدر قرار الفصل بموافقة جميع أعضاء العصبة الآخرين الممثلين فى المجلس »

هذا هو مجمل الاجراءات التى سجلها ميثاق العصبة لتوقيع العقوبات الدولية على العضو المعتدى أو المنتهك لميثاق العصبة . وظاهر أن هـذه العقوبات ذات صبغة اقتصادية محضة ؛ ويمكن وصفها بأنها نوع من الحصار الاقتصادى . ولهذا الحصـار الاقتصادى إذا طبق على دولة من الدول أكبر الأثر فى الضغط عليها وشل مشاريعها العسكرية ، خصوصاً إذا كانت مثل إيطاليا تعتمد على الخارج فى كثير من المواد الأولية الأساسية . بيد أن هذه النصوص التى سجلتها عصبة الأمم فى ميثاقها لا تزال نظرية محضة ، ولم يجر تطبيقها حتى اليوم بصورة فعلية ، وإن كان ذكرها قد جرى فى بعض الأزمات الدولية ، ولا تزال أكبر نقطة ضعف فيها خلوها من أى ضمان فعلى للتنفيذ ؛ فليست لعصبة الأمم أية قوة أو أية سلطة فعلية تمكنها من تطبيق مثل هذه العقوبات ، وليس فى وسع مجلس العصبة إلا أن « يوصى » إلى الحـكومات ذات الشأن بتقديم القوى اللازمة ، فاذا رفضت هذه الحـكومات أن تقدم هـذه القوى ، فماذا عسى أن يستطيع مجلس العصبة إزاء الدولة « المعتدية » ؟ هذا ومن جهة أخرى فان صفة « الاعتداء » لم تعرف حتى اليوم تعريفاً كافياً ؛ وربما كان من الميسور أن يعرف « المعتدى » حالاً فى مسألة النزاع الايطالى الحبشى ، إذ لا ريب فى أن « المعتدى » هو إيطاليا ؛ ولـكن ليس من السهل فى كثير من المنازعات الدولية أن يقطع فى أمر « المعتدى » قطعاً لا مرية فيه

وقد كان هـذا النقص فى ضمان التنفيذ وما زال أعظم نقط الضعف فى مواثيق السلام والتحكيم الدولية ، وهو أعظم نقط الضعف فى ميثاق تحريم الحرب (ميثاق كلوج) الذى اغتبط لعقده أنصار السلام أيما اغتباط ، ثم لم يلبث أن ظهر عقمه حين الحاجة الى تطبيقه . وقد كان اعتداء اليابان على منشوريا أعظم صخرة ارتطم بها ميثاق عصبة الأمم وميثاق تحريم الحرب . والآن يبدو عقم هذه المواثيق الدولية مرة أخرى إزاء النزاع الايطالى الحبشى ؛ وحيثما كان الفريق الأقوى يعتبر المواثيق الدوليـة قصاصات لا قيمة لهـا ، كما هو الشأن فى حالة إيطاليا التى ترتبط مع الحبشة ومع فرنسا وانكلترا بأكثر من معاهدة لاحترام اسـتقلال الحبشة وسلامة أراضيهـا ، فان المناقشات الفقهية فى احترام مواثيق السلام لا تجدى مالم تـكن مؤيدة بالقوى الفعلية لتنفيذها

ولـكن السياسة الانكليزية ما زالت تعول على دستور عصبة

الأمم فى سعيها لرد عدوان السياسة الفاشستية . وهى تشير إلى مسألة العقوبات الاقتصادية التى نصت عليها المادة السادسة عشرة كوسيلة من وسائلها . والواقع أنه ربما كان لهذا السعى أثره المادى إذا أيدته الدول . فقد حدث فى سنة ١٩٢١ ، حين غزت يوجوسلافيا الأراضى الألبانية ، أن هددت عصبة الأمم بتطبيق العقوبات الاقتصادية ، فكان ذلك كافياً لوقف الاعتداء . وقد عجزت العصبة فى سنة ١٩٢٣ أن ترد السنيور موسوليني عن احتلال جزيرة كورفو اليونانية تنفيذاً للبلاغ النهائى الذى وجهه إلى اليونان ، ولكنها استطاعت بعد ذلك بعامين أن تحول دون اضطرام الحرب بين اليونان وبلغاريا من جراء النزاع بينهما على الحدود . وقد فطنت عصبة الأمم نفسها إلى هذا النقص الذى يعتور نص المادة (١٦) ، وبحثت فى أمره ، وقررت فى شأنه بعض التعديلات التى من شأنها أن تسهل الاجراءات فى حالة الأزمات الخطيرة ؛ ويقضى هذا التعديل « بأنه يجب على مجلس العصبة أن يقرر ما إذا كانت قد ارتكبت مخالفة للميثاق » ولكن العصبة صرحت أيضاً أن المجلس لا يستطيع أن يفعل أكثر من أن يدعو الأعضاء إلى تطبيق العقوبات الاقتصادية ، وقد يستطيع بعد ذلك أن يطالب الدول بتقديم المعاونة العسكرية التى يمكن استخدامها ضد الدولة المعتدية . بيد أن هذا التعديل لم تصادق عليه الأغلبية المطلوبة من الأعضاء حتى اليوم

وقد تستطيع السياسة الانكليزية أن تقنع عصبة الأمم بتوقيع العقوبات الاقتصادية على ايطاليا ، وهذا الاقناع ميسور إذا استطاعت أن تجذب السياسة الفرنسية إلى جانبها وأن تقنعها بضرورة العمل معها لدرء الأخطار التى تهددها وتهدد أوربا من جراء الحرب التى تعمل الفاشستية لاضرامها . وعندئذ يمكن أن تؤدى انكلترا فى هذا الحصار الاقتصادى الذى ينص عليه ميثاق العصبة أكبر دور ، هذا فضلاً عن الدور الذى تؤديه باقى الدول المؤيدة لانكلترا ضد ايطاليا ، وذلك بقطع المواد الأولية عن ايطاليا ورفض التعامل معها فى كل ما يمكن أن يسهل استعداداتها الحربية ؛ أما انكلترا ففى وسعها أولاً أن تلجأ إلى اغلاق قناة السويس بالاستناد إلى نص المادة (٢٠) من ميثاق العصبة ، وهى التى تنص على الغاء جميع المعاهدات السابقة التى لا تتفق مع نصوص الميثاق وغاياته ، باعتبار أن معاهدة سنة ١٨٨٨ التى تضمن حيدة القناة وفتحها فى كل وقت من أوقات السلم أو الحرب ولسفن جميع الدول أضحت مناقضة لميثاق العصبة ، وهذا ما تنكره ايطاليا على انكلترا كل الانكار ، لأن معاهدة سنة ١٨٨٨ ما تزال قائمة فى نظرها ويجب احترامها طبقاً لنص المادة ٢٨٢ من معاهدة فرساى (بند ١١) ، حيث ينص على تمداد المعاهدات التى تبقى نافذة المفعول مع ألمانيا ، وميثاق عصبة الأمم ليس إلا فصلا من فصول معاهدة فرساى . وفى وسع انكلترا أن تلجأ أيضاً إلى إغلاق جبل طارق فى وجه السفن الايطالية ، كما أنها تستطيع أن تغلق فى وجهها بوغاز باب المندب فتقطع بذلك على إيطاليا كل سبيل للاتصال بالأرترية أو السومال . على أن إيطاليا ترى فى هذه التصرفات كلها أعمالاً عدائية وإعلان حرب تقابله بالمثل ، ومن المحقق أن انكلترا ستفكر طويلا قبل أن تقدم على شىء منها

وهناك مسألة تصدير السلاح إلى الحبشة ، وهذه أيضاً وسيلة ناجعة فى يد انكلترا ؛ وقد ألغى تصدير السلاح إلى الحبشة مؤقتاً فى انتظار نتيجة المساعى السلمية ، فاذا أصرت إيطاليا على موقفها ، وهو الأرجح ، فان انكلترا ستعود إلى تصدير السلاح إلى الحبشة ؛ وتزويد الحبشة بالسلاح يطيل أمد الحرب ، ويزيد فى متاعب إيطاليا إلى حدود قد لا تقوى على مغالبتها

وسنرى على أى حال ما إذا كانت عصبة الأمم ، أو بعبارة أخرى ما إذا كانت الدول التى تسيطر على مجلس العصبة ، تستطيع فى هذه الدورة القريبة التى ستعقد بعد يوم أو اثنين ، أن تذهب فى الشجاعة والحزم إلى حد المطالبة بتوقيع العقوبات على إيطاليا

(***)

بين ثقافتين

يتّجه الناقد الأدبي بنظره الى مختلف النوازع الفكرية والمتّجهات الأدبية في هذا البلد ، فلا يلبث أن يرتدّ اليه الطرف حيران ؛ فما نستطيع أن ندّعى عن يقين أن لهذا العصر اتجاهاً أدبياً يُنسب اليه ويعرف به ويتسم بطابعه . ولكنها تيارات مختلفة يتنازعها الضعف والوهن ، وتتوزّعها الأهواء والشّيع ؛ وبين دُعاة الجديد وأنصار القديم حرب مشبوبة ومعركة هدّامة ، لا نراها سيُؤْذَن لها أن تهدأ فتستقرّ إلا أن نعرف مدى هذا الجديد ، وماهيّة ذلك القديم

ولن يتأتى لنا أن نعرف ذلك أيضاً ، ما دامت مناهج الدراسة الأدبيّة في مصر لا نعرف لها مُتّجهاً ومذهباً ، وعندنا عديدٌ من معاهد الأدب ، يذهب كل منها مذهباً في تخريج طلابه ، ويُمثّل في مناهجه الدراسيّ صورة مصغرة للصراع الأدبي المختلف النزعة والاتجاه بين أدبائنا الكبار !

فعندنا الأزهر ، قديمٌ موغلٌ في القدم ، لا يرى العلم والأدب والثقافة إلا كما كان يراها القُدامى الأوّلون من علمائه ؛ وهو مذهبٌ في الاعداد الأدبيّ له قيمته وأثره ، ولكن له إلى جانب ذلك عيوبه وخطره – وما نعني الأزهرَ الجديد الذي يخطو اليوم الى التجديد خُطاه الأولى ، بحنكة شيوخه وهمة شبابه ، فانه ما يزال على الطريق ، ولا نعرف أين تستقر به الغاية من الهدف الذي يرمى اليه

ولو أنا تركنا الأزهر وولّينا النظرَ شطر الجهة الأخرى ، لرأينا منهجاً جديداً في كلية الآداب ، بينه وبين منهج الأزهر ما بين طرفىْ خيطٍ طويل يصل أول التاريخ بما بعد التاريخ ؛ فهناك القديم الغارق في القدم ، كأنما يحاول أن يقف خطْوَ الزمان ، وهنا الجديد الغالى في الجِدّة ، كأنما يحاول أن ينسلخ من ماضى التاريخ . وهناك في الأزهر يُدرّس القديم ويُعنى بالقديم ، بعيداً من روح العصر وسنّة التطور ؛ وهنا في كلية الآداب يُحاوَل الجديد من غير أن يستند إلى أساس من العلم القديم ، وهو بذلك كذلك ، بعيدٌ من روح العصر وسنة التطور ؛ ومن ثمّ نرى في أكثر ما ينتج أدباؤنا لهذا العهد نوعين من الأدب ، لو وضعت أولها في الذروة من بلاغة الوضع وحسن الأداء ، لوضعت ثانيهما في المنحدّر ؛ على أنك لو نظرت إليهما من ناحية الموضوع والفكرة لجعلت أعلاها أسفل وصعدت بالثانى ... ولكنك لن تجد في واحد منهما – على الأكثر – ما يبعثك على الاعجاب بالفكرة والأسلوب معاً ، ومن هذا لا ترضى عن أحدها في ناحية إلاّ أغضبك في الأخرى ، ومنه جاءت الدّعْوَيان اللتان تسمعهما دائماً عند ما يستحرُّ الجدل بين دعاة الجديد وأنصار القديم : « هذا أدب فارغ أكثر عنايته بأسلوب الأداء دون المعنى » أو « هذا أدبٌ ساقط يَتَحَيَّفُ اللغة ويُهمل الجمال الفنّي في اللفظ »

وكلتا هاتين الدعوَيين صادقة من وجه ؛ لأن الأدب فكرةٌ وبيان ، لا يتم تمامه إلا بهما معاً ؛ وأنت قلما تجد بين الكاتبين والشعراء من أدبائنا من يجمع إلى جمالِ الفكرة جمالَ الأسلوب

***

ولو قد تركنا الأدب في ناحية وأردنا أن نعرف اتجاه الثقافة في مصر بوجهٍ عامٍ ، وأثر ذلك في أخلاق أبنائها وفي المثُل العليا التي ينشدونها – لوجدنا مثل هذا الاضطراب وتلك الفوضى ، ففي الأزهر ثقافة دينية ، ولكنها جامدة لا تتطور ، واقفة لا تتحرك ، مغلّقة من دونها الأبواب فلا تؤثر تأثيرها إلا في أبناء الأزهر وحدهم ، أو في المحيط الضيّق الذي يضطربون فيه من قُراهم

على أن في جمود الأزهر مدى طويلاً ، قطعاً بين الازهريين وبين عصرهم ، ومن ثمّ أخذت الثقافة الدينية تتقلص رويداً رويداً ، حتى غدت مقصورة على طائفة قليلة من أبناء الريف ، وبدأ تأثير الأخلاق ينحسر تبعاً لذلك حتى نوشك بعد قليل ألا نرى أثراً له في نفوس الكهولة والشباب منا

إلى جانب ذلك أخذت الثقافة المدنيـة في مدارس التعليم العام تفتن أبناءنا بالمناصب والوظائف والسلطان المرموق ، فاتجهوا إليها بعقولهم وأفرغوا لها أنفسهم ، حتى ما يكاد أبٌ يفكر في تعليم بنيه وبناته إلا ذهب إلى هذه المدارس المدنية

ومنهاج التعليم في هذه المدارس هو ما نعرف ، وهو ما يشكو منه واضعوه والقائمون عليه ، ولعل شر عيوبه أنه لا يرمى إلى غرض عام من أغراض التربية الصالحة ، وأنه يُعْنَى أكثرَ ما يُعْنَى بتلقين المعلومات وتحفيظ النظريات ، فلا الدين ، ولا القومية ، ولا الأخلاق ، ولا المثُلَ العُليا ؛ ومن ثمّ كانت القومية المريضة ، والدين الزائغ ، والأخلاق المنحلّة ، والأمثلة الدّنيا

هذان نوعان من التربيـة وأساليب التعليم في مصر ، يكاد

الشعب بهما أن يكون طائفتين مختلفتي الخلق والثقافة والتفكير كأنما تعيشان في عصرين مختلفين ، وهاتان الطائفتان من متعلمينا وهذان المذهبان في التربية المصرية ، هما اللذان يكشفان عن سرّ الاضطراب في الثقافة المصرية ، كما يكشفان عن مقدار الفوضى في اتجاهنا الأدبي

وإننا بسبيل هذا البحث لنُحاول أن نتعرّفَ أى هذين المذهبين ستكون له الغلبة ، وأىّ هاتين الثقافتين أجدر بالبقاء ؟

* * *

إن تيار العصر يجرفنا في مَسراه فما يدع لنا الفرصة أن نتلبَّث قليلاً لنعرف موقفنا ، على أن كلتا التربيتين لا تجديان علينا الجدوى التي تقرّبنا إلى المثل الأعلى الذي ننشده ؛ ولسنا بمستطيعين أن نظل أبداً نحلم بالماضي والحياةُ تتقدم ، ولسنا بقادرين على أن ننسلخ من هذا الماضي ونخلع قوميتنا لنعدوَ في غبار الأوربيين ، فلا غنى لنا عن المزاوجة بين هاتين الثقافتين والمزج بينهما ، لنخرج من ذلك بمنهج تعليميّ صالح ، يحفظ علينا قوميتنا ، ويصل بين ماضينا والعصر الذي نعيش فيه

على أن فوضى الأدب ودعوى الجديد والقديم ، يجب أن ينتهيا إلى غاية ؛ فما في اللغة والأدب جديد ولا قديم ، وما حسنٌ أن نتنكر لتراث أدباء العربية الماضين بدعوى التجديد ، ولا أن ننكر حكمَ العصر وسنّة التطوّر بالدعوة إلى القديم ؛ فما ينهض هذا إلا بذاك ، وما يستطيع بانٍ أن يبني على غير أساس ، ولا بدّ لمن يتهيأ لحمل رسالة الأدب لينشئ فيه الجديد الذي تُنصت له الدنيا ويفاخرُ به العصر ، أن يأخذ له عُدّته ويتزود بزاده : فيتوفّر على دراسة الأدب القديم ، ويستمع إلى أئمته ، ويروى عيونه ، ويستظهر من روائعه ، ثم يأخذ بسببٍ من كل علمٍ وفن مما يعرفه عصرُه ، فاذا اجتمعت له الأسبابُ واستكمل الأهْبة ، عاد إلى دنياه التي يعيش فيها ، وإلى العصر الذي يتصل به ، وإلى الأحداث التي تنفعل بها نفسُه ، وإلى عواطفه التي انطبعت فيها صورة دنياه ؛ ثم ليُنشئ ما ينشئ ، فسيأتي بالجديد في الديباجة الصافية ، وبالمعنى البكر في العبارة المستقيمة ، وبالشعر الرائق في اللفظ الجزْل ، وبالفكر العميق في البيان الساحر

ولكن أين نجد هذا مما ندرس هنا وهناك ، وما نجد هنا وهناك إلا فكراً بلا بيان ، أو بياناً بلا فكر ؟ وما نرى هناك وهنا إلا رطانة مستعربة ، أو عربية فارغة ، نسميها الجديد والقديم !

* * *

على أن في مصر مدرسة نحمد أثرها ، ونذكر يدَها على الأدب والثقافة العربية ، هي مدرسة دار العلوم ، فهي الصلة بين الثقافتين ، والملتقى بين الغربيين ؛ جمع منهجُها بين الثقافة العربية والاسلامية التي تدرس في الأزهر ، والثقافة المدنية التي تدرس في المدارس العامة ؛ فالى جانب دراسة الدين ، ونصوص اللغة ، وتراث السلف من أدباء هذه الأمة وعلمائها — يدرس التاريخ ، والفلسفة ، وأشتات من الرياضة والعلوم والفنون والآداب ؛ فمن أجل ذلك كان لدار العلوم هذا الأثر القوى في النهضة الأدبية الحاضرة ، وكان لأبنائها السبق في كثير من ميادين الانتاج ؛ وأنت ترى فيما يبدعه الكتاب والشعراء من أبناء دار العلوم ، طابعاً خاصاً قلّما تراه فيما ينتجه غيرهم من الكتاب والشعراء ؛ ذلك لأنهم درسوا القديم دراسة روية وفهم ، وعاشوا في عصرهم كما يعيش أهله ؛ فلم ينسلخوا عن ماضي أمتهم ، ولم يتخلفوا عن عصرهم ، فكانوا بذلك صلة التاريخ بين ماضيه وحاضره

تلك شهادة الحق لهذه الدار التي أنشأها اسماعيل منذ ستين عاماً ونيف ، فنهضت بتبعاتها على أكمل وجه ، وأدت أمانة العلم أحسن أداء ، نذكرها لها منصفين في الوقت الذي تحاول فيه أحداث الزمان أن تنال منها وتنكر جدواها

على أن فضل هذه المدرسة ليس مقصوراً على أثرها في اللغة والدين ؛ فلعلها المدرسة الوَحيدة التي تخرّج المدرسَ القوىّ ، والمدرسُ في بلدنا — كمناهج التعليم في مدارسنا — لا يراد منه أن يمثل الروحَ القوىّ أكثرَ مما يراد منه أن يكون مدرسَ مادة بعينها ، ولكن خريج دار العلوم بحكم ثقافته وتربيته ، هو وحده يمثل الروحَ القوىّ أصدَق تمثيل ، بعربيته ، ودينه ، وخلقه ، ومكانه من زمانه ؛ فليت وزارة المعارف عرفت له ذلك فلا تدعه في هذه الدائرة الضيقة من برنامج عمله المحدود ، فان مصر في حاجة إلى هذا الروح القوىّ ليبعث في التلاميذ من أبنائها معنى القومية وينشئهم التنشئة القويمة التي تؤهلهم لحمل تبعات الجهاد في المستقبل القريب

ونحن مستيقنون أن دار العلوم يوم ينفسح لها الميدان لتؤدى رسالتها ويمكن لها لتنهض بما استعدت له ، ويزاد في مناهجها ما يؤهلها لأن تنظر في كل جديد فتتبع أحسنه — نكون قد عرفنا الاتجاه الأدبىّ الذي نسير اليه ، ورسمنا لنا في الثقافة منهاجاً صالحاً ، لا يمكن للأجانب أن يغزونا في آدابنا وعقولنا ، بعد أن نالوا منالهم من أرضنا وأموالنا !

من تراثنا العلمى

كتاب فى البَيْزَرَة

وصف وتحليل لنسخة فريدة من كتاب مفقود ، فى علم ضائع ، لمؤلف مجهول

للأستاذ على الطنطاوى

البَيْزَرَة (أو البَزْدَرَة) : علم يبحث فيه عن أحوال الجوارح من حيث حفظ صحتها ، وإزالة مرضها ، ومعرفة العلامات الدالة على قوتها فى الصيد ، وضعفها فيه — قاله فى كشف الظنون

والكلمة معربة ، وهى من قولهم « بَيْزار » معرب « بازْدار » و « بازْيار » ، أى حافظ البازى وصاحبه ، والجمع « بيازرة » كما فى التاج واللسان ، قال الكُمَيْت :

كأن سوابقها فى الغبار صقور تعارض بيزارها

وجاءت بالدال فى قول أبى فراس :

ثم تقدمت إلى الفهّاد والبازداريين باستعداد

قال الشيخ داود الأنطاكى : وغايته اقتناص ما يشق اصطياده واللهو والرياضة ، وشرح الصدور ، وتسكين نحو الجذام والنقرس والمفاصل لتوالى الفرح ، وسكون الغضب الخ

وقد سموه علم البزدرة (أو البيزرة) ، إضافة له إلى أشرف أنواعه وأخفها ، وهى البزاة

ولخصه فى « التذكرة » فى مقدمة وثلاثة مباحث :

فالمقدمة فى كيفية اهتداء الناس إلى اتخاذ الطيور ، وأول متخذ لها ، وما هو المعتبر منها

والمبحث الأول فى كيفية الاستدلال على الجيد منها باللون والصفة ، وفى ذكر طرق التعليم

والمبحث الثانى فى أوقات الارسال وكيفية الصيد ، واختلاف حال الطيور

والمبحث الثالث فى علامات الصحة والمرض وطب الجوارح

* * *

وقد كان هذا العلم مزدهراً معروفاً أيام عز العرب وازدهار مدنيتهم ، ثم ضاع فيما ضاع من تراث الأجداد ، وفقدت كتبه كلها ، ونسيه الناس ، فلم يكد يذكره أحد ممن ألف فى تاريخ الثقافة الاسلامية ، ولم يبق بين أيدينا من المراجع فى هذا العلم إلا هذا الفصل الذى كتبه الشيخ داود الانطاكى فى كتابه تذكرة أولى الألباب [١] وكلمة فى كشف الظنون للحاج خليفة [٢] لاتعدو الأسطر الثلاثة ، نقلا عن جامع السعادة لكاشكرى زاده ، وكلمة فى مُعَلَّم (دائرة معارف) البستانى تحت عنوان : بزدرة

على أن للمتقدمين كتباً كثيرة فى هذا العلم عدّ منها ابن النديم [٣] فى الفهرست : كتاب الجوارح لمحمد بن عبد الله بن عمر البازيار ، وكتاب البزاة للفرس ، وكتاب البزاة للروم ، وكتاب البزاة للترك ، وكتاب البزاة للعرب ، وكتاب البزاة واللعب بها لأبى دلف العجلى [٤] وسماه ابن خلكان [٥] كتاب البزاة والصيد

ومن الكتب المؤلفة فى هذا العلم كتاب « القانون الواضح » ذكره فى كشف الظنون نقلا عن جامع السعادة لكاشكرى

(١) المعروف بتذكرة داود ، وهو داود بن عمر الأنطاكى ، طبيب ماهر ضرير ، لم يكن فى زمانه أعلم منه بالطب ، ولد فى أنطاكية وحفظ القرآن ، وقرأ المنطق والرياضيات وشيئاً من الطبيعيات ، وأحكم اليونانية ، وهاجر إلى القاهرة ونال بها شهرة ، ورحل إلى مكة فمات فيها سنة ١٠٠٨ هـ . تصانيفه كثيرة ، أهمها التذكرة ، وتزيين الأسواق فى الأدب ، وكفاية المحتاج فى علم العلاج ، وشرح عينية ابن سينا ، وله شعر ، وكان يملى ذلك كله املاء

(٢) الحاج خليفة مصطفى بن عبد الله ، كاتب شلبى المؤرخ التركى المستعرب ، ولد فى القسطنطينية وتقلب فى كثير من المناصب ، وحج وساح فى الأرض ، وتوفى فى الآستانة سنة ١٠٦٦ هـ وله مصنفات أهمها الكتاب الجليل كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، وتحفة الكبار فى أسفار البحار ، وتقويم التواريخ وغيرها

(٣) محمد بن اسحاق بن يعقوب النديم البغدادى الوراق المعتزلى وكنيته أبو الفرج مؤرخ ثقة بحاثة ، توفى سنة ٣٨٥ هـ وكتابه الفهرست من أقدم وأفضل كتب التراجم

(٤) القاسم بن عيسى أمير الكرخ وسيد قومه وقائد المأمون ، أديب شاعر كريم ممدوح ، وله تصانيف منها سياسة الملوك والبزاة والصيد ، وهو الذى قيل فيه :

إنما الدنيا أبو دلف بين باديه ومحتضره
فاذا ولى أبو دلف ولت الدنيا على أثره

توفى سنة ٢٢٥

(٥) أحمد بن محمد بن ابراهيم البرمكى ، المؤرخ الحجة الأديب البارع ، وكتابه الوفيات أحسن كتب التراجم وأجمعها وأضبطها ، ولد فى اربل سنة ٦٠٨ وأقام بمصر مدة تولى فيها نيابة القضاء ، ثم تولى قضاء الشام الملك الظاهر ، ثم تردد بينها وبين مصر ، ودرس فى العادلية والأمينية وغيرهما من مدارس دمشق ، وتوفى فيها سنة ٦٨١ ودفن فى سفح قاسيون

زاده (١) ووصفه بأنه كاف فى هذا العلم ولم يسم مؤلفه

وذكر الشاعر الكبير الأستاذ الشيخ رضا الشبيبي (وزير المعارف العراقية اليوم) فى مجلة المقتبس (٢) أن فى الخزانة التيمورية كتاباً اسمه « القانون فى البيزرة » ولعله هو

وذكر أن من كتب هذا العلم كتاب « أنس الملا بوحش الفلا » تأليف محمد بزمنكلى نقيب الجيش المصرى فى أواخر القرن الثامن، وهو فى خزانة باريز تحت رقم ٢٨٣٤، والقواعد المحبرة فى البيطرة والبزدرة للأنطاكى

وهناك آثار تعم الصيد بالكلاب والنبل والنشاب وهى كثيرة منها: كتاب المصائد والمطارد لكشاجم (٣) ذكره ابن خلكان فى الوفيات، وانتهاز الفرص فى الصيد والقنص للشيخ تقى الدين الناثرى ألفه بزبيد سنة ٩١٠، ذكره الحاج خليفة فى كشف الظنون وغيرها

وقد تكلم فى طباع الجوارح وأحوالها كثيرون منهم: الدميرى (٤) فى حيـاة الحيوان. والقزوينى (٥) فى عجائب المخلوقات وغيرهما

وفى الأدب العربى أدب للصيد قائم برأسه، يعرف بالطرديات نبغ فيه جماعة منهم: أبو نواس، وأبو فراس، وكشاجم، والحلى وغيرهم

***

وفى سنة ١٣٣٢ هـ وجد الأستاذ الشيخ رضا الشبيبي بين (نفيسات آثار شعثها الاهمال، وطمسها الابتذال، منبوذة فى ناحية غامضة، نبذك سقط المتاع، ملقاة نالت منها الأرضة والحشرات، أضعاف ما اقتبسته منها العقول النيرات. قد علاها من الزبل وسلح الطيور ونحوها ما غير محاسنها، وأخلق كريم ديباجتها) وجد بين هذه الآثار كتاباً فى البيزرة، وأول شىء فى هذا الكتاب إغفال تسمية مؤلفه فيه، وأنه خال من البسملة والحمدلة، عار من تقديم مقدمة قبل الشروع فى المقصود، وعلة ذلك انقطاع دابر هذا الفن وأهله حتى لم تتألف من مشاهيرهم إلا طبقة محدودة... وليس هذا الكتاب مما ألف للاسكندر الرومى ثم نقل إلى العربية كما يظهر مما جاء على ظهره وهذا نصه: « كتاب البيزرة صنفه الحكماء المتقدمين (كذا) للملك الاسكندر الرومى؛ وهو كتاب عجيب مما يصلح بالملوك إذ لابد لكل ملك من مسير إلى صيد بأحد هذه الطيور الجوارح »؛ والذى أوقع الوراقين فى هذا الوهم ما ورد فى نحر الكتاب من أن ثقات الروم من أهل المعرفة؛ ذكروا أن الاسكندر الرومى قال للحكماء المحتفين بخدمته: «أريد أن تعرفونى بطبيعة البازى وأمراضه وعلامة كل مرض ودائه وهل طبيعته تقارب طبيعة الآدمى أم لا ؟ » وأنت تعلم قصور هذه العبارة عما يدعون، كيف وفى الكتاب نقل كثير عن حكماء العرب والمستعربين، ومنهم من صحب الرشيد !! فالكتاب إذن من طرائف عصر عربى راق كما يظهر أيضاً من أسلوب انشائه السهل الممتنع البليغ. ولا يبعد أن يكون مؤلفه من رجال أواخر القرن الثالث أو الرابع للهجرة. يدلنا على ذلك أن المسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ أورد فى مروج الذهب عن الجوارح فصلين ترجح - بقول الأستاذ - أنهما منقولان عن هذا الكتاب باختلاف يسير

وروى لنا خبير أن فى خزانة باريز كتاباً رقمه ٢٨٣١ بدون اسم إلا أنه كتب على ظهره بخط غير خطه: « كتاب الجوارح والبزدرة تصنيف الفيلسوف (أبو) بكر بن يوسف بن أبى بكر ابن حسن بن محمد القاسمى القرشى العلوى الأشعرى » تاريخ كتابته سنة ٨٤٨ هـ

فاسم هذا الكتاب طبق المحز وأصاب المفصل من الكتاب الماثل أمامى الآن، لكن لا تزال حقيقة مؤلفه مبهمة مجهولة. هذا وكتابنا جزآن أو مقالتان، فى المقالة الأولى ٥٢ باباً فى تاريخ

---

(١) أبو الخير أحمد بن مصلح الدين كاشكرى مؤرخ تركى الأصل مستعرب، ولد فى بروسة وتنقل فى مناصب التدريس والقضاء إلى أن ولى قضاء حلب وكف بصره، وتوفى سنة ٩٦٨ هـ، ومن كتبه: الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية، ومفتاح السعادة والشفاء وغيرها

(٢) العدد الأول من المجلد التاسع الصادر سنة ١٣٣٥ هـ، وقد كان يصدر المقتبس مفخرة القطر الشامى أستاذنا الجليل محمد بك كرد على، وقد صدرت فى مصر ثم فى الشام، فكانت الحجر الأول من بناء نهضتنا الأدبية والفكرية، ومجموعتها سجل أدبى لتلك الحقبة، وكتاب فيه من المباحث العلمية ونفائس آثار الأولين ما لم ينفصر فى غير المقتبس

(٣) محمود بن محمد بن الحسين الرملى المعروف بكشاجم، شاعر متفنن من كتاب الانشاء، له « أدب النديم » و« خصائص الطرب » و« المصايد والمطارد » وله ديوان، مات سنة ٣٥٠ هـ

(٤) محمد بن موسى بن على الدميرى وكنيته أبو البقاء، باحث فقيه أديب مولده ووفاته فى القاهرة، كان خياطاً ثم أقبل على العلم وأفتى ودرس فى الأزهر. له حياة الحيوان، والديباجة شرح كتاب ابن ماجه، والنجم الوهاج فى شرح المنهاج وغيرها توفى سنة ٨٠٨ هـ

(٥) زكريا بن محمد بن محمود من سلالة أنس بن مالك رضى الله عنه، مؤرخ جغرافى، ولد بقزوين ورحل إلى الشام والعراق وتولى قضاء واسط والحلة أيام المستعصم العباسى، توفى سنة ٦٨٢ هـ، له آثار البلاد وأخبار العباد، وخطط مصر وعجائب المخلوقات (قال فى الأعلام) وقد ترجم إلى الفارسية والألمانية والتركية

الصيد بالجوارح وتقسيمها إلى أقسامها وكيفية ترتيبها وسياستها ثم إرسالها إلى غايتها

وفى المقالة الثانية ٦٣ باباً فى أدواء الجوارح وعللها وما يتخذ لعلاجها من المركبات فجملة الأبواب ١١٥ باباً فى حجم ١٤٥ قاعة أو ٢٩٠ صحيفة صغيرة مخطوطة خطاً واضحاً متأخراً ، أغاليطه بخطئها العد ، وفى آخره : « وقع الفراغ من كتابة هذه البيزرة نهار السبت ١٢ جمادى الأخرى سنة ١٢٠١ من الهجرة على يد ملامط ابن عبد الله الطرفى » ا هـ . كلام الأستاذ الشبيبى

***

أما الكتاب الذى أصفه اليوم فقد وقع عليه صديقنا الوراق العالم الشيخ حمدى السفرجلانى فى خزانة قديمة فى دمشق فعرف قدره فاشتراه . ثم كانت له قصة انتهت بأن بيع الكتاب إلى أحد المولعين بالكتب القديمة من الأفرنج وبقيت منه النسخة الفوتوغرافية التى أصفها عند الأستاذ السفرجلانى

وكتابنا – وإن لم يعرف مؤلفه – من أقدم الكتب المصنفة فى هذا العلم وأجلها . فقد وضع للعزيز بالله أبى منصور نزار بن المعز معد بن المنصور إسماعيل بن القائم بالله محمد بن المهدى العبيدى الفاطمى صاحب مصر والشام المتوفى فى الحمام يوم الثلاثاء ٢٨ رمضان سنة ٣٨٦ هـ

وكان مُغْرى بالصيد ، يصيد بالحبل والجارح من الطير ويصيد بالسباع . وكان مؤلف الكتاب كما يتحدث عن نفسه من بيازرة العزيز والمقربين اليه ، وكان غالياً فى التشيع لا يذكر العزيز مرة إلا صلى عليه وسلم ! ومن قوله وهو يتحدث عن باز : « ولم أر فى المدة التى لزمت فيها الصيد ومبلغها عشرون سنة الى أن صنفت كتابى هذا فى علم البيزرة مثل هذا البازى على كثرة ما رأيت منها . ولقد وصل الينا فى ليلة واحدة مائة باز من الشرق والغرب . فكم تراه يصل فى كل سنة محمولاً إلى أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، مما لم يحمل إلى تملك قبله كثرة وجودة ، وكل ذلك أتولى تدبيره ، وأمارس تضريته ، والاصطياد به الخ »

وقال فى آخر الكتاب :

« وقد كان مؤلف هذا الكتاب فى جملة البيازرة متقدماً عليهم – لا فى جملة واحد منهم لا يحسن شيئاً من البيزرة ، ثم أفرده أمير المؤمنين صلى الله عليه عنهم ، وله من العمر إحدى عشرة سنة ، وعلمه وهو لا يملك عشرة دراهم وعليه ثوب – ثم خرج فى صناعته إلى ما قد شاهده الناس وعرفوه ، ورقى أمير المؤمنين صلى الله عليه منزلتــه إلى أن صار اقطاعه عشرين ألف دينار ، وبلغ المنزلة التى لو رآها فى النوم لما صدقها ، فلا يخفَ عن الناس ما كان فيه ، وما صار إليه »

والكتاب كله من النمط العالى فى إنشائه وأسلوبه ، وهو مشحون بالفوائد والأخبار الأدبية ، والأسمار المستملحة ، والقصص اللطيفة ، ويقع فى ٣٠٠ صفحة مكتوبة بخط قريب من النسخى ، قليلة أخطاؤه ، مشكول شكلاً لا يعتمد عليه دائماً ، فيه إشارات خاصة كانت توضع على الحروف المهملة ثم أهملت[1] ، ومقدار المكتوب من الصفحة (١٨ – ١٠) سنتيمتراً ، وفيه ١٣ سطراً وفى آخره : « وقد وصينا بما فيه الصلاح لمن انتهى إليه وعمل به ، وبالله نستعين وعليه نتوكل

تم الكتاب والحمد لله رب العالمين ، كما هو أهله ومستحقه ، وصلى الله على نبيه محمد خاتم النبيين ، وعلى الأئمة من عترته الطاهرين الأخيار وسلم تسليماً »

وبعد ذلك ست صفحات يختلف خطها قليلاً عن خط الكتاب فيها :

باب النفقة على البيازرة وما يصل من أموال أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين اليهم فى كل سنة

وباب فى أحكام الصيد الشرعية وما يحل من ذلك وما يحرم فى خمس صفحات فى الثلاث الأخيرة منها خرم يصعب معه قراءتها وقد صرح بأن هذه الأحكام على المذهب الشيعى وعرض بالمذاهب الأخرى

وليس فى أول الكتاب أو آخره ما يدل على تاريخ كتابته ولكنى عثرت فى وسطه على جملة مكتوبة تحت (باب ذكر ما يحتاج إليه البازى فى القرنصة) بخط الناسخ هذا نصها :

« وكتب هذا الكتاب تاريخ سنة خمسمائة فى شهر شوال »

وإذن فيكون عمر النسخة التى نصفها أكثر من ثمانية قرون

هذا وسنعرض على القراء خلاصة أبواب الكتاب ، ونماذج منه صالحة فى مقالة أخرى ، فقــد طال بنا نفس الكلام ، والله المستعان

على الطنطاوى

(١) وللعلامة المرحوم الشيخ طاهر الجزائرى رســالة فى بيان هذه الاشارات مطبوعة

في الكتب

ما كنت أتمنى أن أقرأ

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

ليس أكثر من الكتب في الدنيا ، ولعلها الشيء الوحيد الذي يزيد ولا ينقص ، ولو أن ما كتبه الناس من أقدم العصور التي بقي لنا منها أثر — ودع ما نقل بعضهم عن بعض — جمع في مكان واحد ، لملأ مدينة واسعة كالقاهرة ومعها ضواحيها التي تزحف بها على الريف من ناحية ، وعلى الصحراء من نواح ، وليس أشد شرها ممن يستقل ذلك ، أو لا يرى فيه غناء ، وهنا موضع التحرز أو التنبيه إلى وهم قد يسبق إلى بعض الأذهان ، فما أعني أن في الموجود من الكتب ما يغني عن الاستزادة أو يصد عن التطلع ، أو ما يكتفي به العقل الانساني عن المضي في البحث والتقصي ، وإنما أعني أنه حسب من شاء أن يقرأ ، فما يتسع عمر — مهما طال — للالمام ببعض هذا الموجود من ثمار العقول ، ولو أن أعمار الذين لا خير فيهم أضيفت إلى عمر الواحد منا (! !) وزيدت عليه ، لما كانت كافية لتحصيل ذلك كله ، ولكني ، مع ذلك ، أراني أحياناً — وأنا جالس بين ما بقي لي من كتبي — أتحسر وأعني : أتحسر لأن مطبوعاً من هؤلاء المؤلفين ، على الشعر ، أبى إلا أن يكون جاهلا نفسه ، وتوهم أنه ناقد أو فيلسوف أو غير ذلك ، وذهب يكتب . أو أن كاتباً فذاً غالط نفسه فراح يقرض الشعر ، ويجيء بالغث ويحسب أنه صنع شيئاً ، وأعني لو أن بعضهم نظم قصيدة في معنى يخطر لي ، وأراه كان أقدر على صوغه ، أو وضع كتاباً في بحث معين ، أو كتب قصة مثلا ، أو أردف ما كتب بشرح ما يعني ، كأنما كل هذه الكتب لا تكفي ولا تقنع !

وأتساءل أحياناً — لو أن أبا العلاء لم ينظم أكثر سقط الزند وبعض اللزوميات ، وزادنا من مثل رسالة الغفران ، أكان هو ينقص شيئاً أم كان يزيد ؟ ؟ وهل كنا نحن القراء نخسر أم نكسب ؟ ؟ كنا نربح فيما أعتقد ، ولم يكن يضيع علينا شيء من نظمه لا نهمله الآن ، ولكن أبا العلاء غلط وآثر التكلف ، ليرضي غروره ، وليتمزى أيضاً باظهار اقتداره . وإنه لفحل عظيم ، وما يطيب لي أن يظن أحد أني أغمطه أو أنزله دون منزلته ، وإني لأعلى به عيناً من أن يخطر لي أن في وسعي أن أظلمه ، ولكني كنت أود لو زادنا من مثل الرسالة ، وفي يقيني أنه لو كان فعل ، لبلغ الذروة واستولى على الأمد

ويؤسفني أحياناً أن الجاحظ لم يكتب قصة . أما لو كان فعل ! ؟ أين بين كتاب العرب ، من كان أقدر على ذلك منه ، وأولى بأن يكون أبرع فيه ، وأسحر وأفتن ؟؟ من له مثل قدرته على الكتابة ووفاء التعبير بلغته ؟ من له مثل فطنته ونفاذ نظره ، وفكاهته ، وحسن تأتيه ، ولطف مداخله ، وحذقه في التناول والعرض ، ودقته في فهم الناس واستبطانهم ، والاحاطة بجوانبهم المختلفة ، والتفطن إلى نواحي الجد والهزل فيهم ، وإلى مبلغ اختلاط هذا بذاك ، وإرباء ذاك على هذا ؟ ؟

أوليت الجاحظ كان مصوراً ! ؟ أترى كان يستطيع — لو ساعفته الأحوال وتاحت لذلك فرصة — أن يحول مواهبه إلى هذه الجهة ؟ ؟ أكان يسعه أن يسخر قدرته اللفظية على البيان إلى قدرة من نوع آخر ، على الأداء ، فيثبت ما يريد على اللوح ويدعه ، وهو ساكن لا حركة فيه ولا تتابع للحظاته ومناظره ، ينطق بما حمله من المعاني ؟ ومن يدري ؟ إن مطلب الكاتب غير مطلب المصور ، وأداة هذا غير أداة ذاك ، وأقل ما بينهما من الفروق ووجوه الاختلاف أن الكاتب يقوم أسلوبه على الحركة والتعاقب ، وأن المصور لا يسعه إلا أن يثبت لحظة ويعرضها ساكنة ، والسكون لا ينفي التعبير والنطق ، وقد يكون أنطق ، وأبلغ في نطقه من الكلام . فهل كان بيان الجاحظ — وهو فيض لا تصده السدود — يستطيع أن يحتمل الحصر والتجمد والتجمع ، والنطق بقوة الابراز لا بفضل الانسياب أو التدفق ؟ أعود فأقول ، لا أدري ؟

وتمنيت ، وأنا أدير عيني في كتبي على رفوفها ، لو أن هؤلاء الألمان الذين يتفلسفون علينا بما لا نفهم ، بينوا لنا — أو لي أنا على الأقل — ماذا يريدون أن يقولوا . عجيب أمرهم والله ! قرأت مرة لأحدهم — وأظنه « هجل » فما أذكر الآن بعد هذا الزمن كله — كتاباً في « فلسفة التاريخ » فخرجت منه كما دخلت ، وقلت لنفسي : إما اني أنا حمار ، وإما أن هذا الرجل

لا يحسن العبارة عما فى رأسه ، ولكنى أفهم عن غيره فلماذا أرانى لا أفهم عنه ؟ ؟ وكيف يعقل أن أعجز عن فهم ما أخرجه عقل انسان مثلى ؟ وكان فى هذا الكتاب فصل عن المدنية الاسلامية أو عن تاريخ العرب — فقد نسيت — خيل إلى أنى فهمت أقله ، ودارت الأيام ، ووقع فى يدى كتاب لرجل أمريكى اسمه « دريبر » عن المدنية ونشوئها ، يكتب كما يكتب خلق الله — لا الألمان — فاذا فيه فصل طويل عن العرب بعد تطبيقاً لنظرية هجل التى لم أفهمها ، فسألت نفسى : لماذا لم يكتب هجل كما يكتب هذا الرجل ؟ ؟ ثم عدت أسألها وأتعجب : لماذا فهم « دريبر » عن « هجل » ولم أفهم أنا عنه ؟ وأسأت الظن بنفسى واعتقدت أن بى نقصاً فى التدريب العقلى ، وراجعت « هجل » وكررت إلى هؤلاء الألمان الموصين كرة المصمم المستميت ، ولكن مضغ الجلاميد أعيانى ، فنفضت يدى منهم — ومن نفسى — يائساً ، وقلت : يا هذا ، لقد صدق القائل : كل ميسر لما خلق له ، وأنت لم تخلق لتقرأ فلاسفة الألمان ، فارجع عنهم ، وانج بنفسك منهم

ولست أعرف أن للمتنبى نثراً ، وإن شعره لحسبه ، فما يحتاج بعد أن قال هذا الشعر أن يصنع شيئاً آخر ، أو يجشم نفسه جهداً فى باب غيره ، ولكنى مع هذا أحس بحسرة لأنه لم يشأ أن يترك لنا كتاباً عن مقامه فى مصر ورحلته إلى « الأستاذ » كافور ! ألا يشعر القارئ معى أن كنوز الأدب العربى ينقصها هذا الكتاب من قلم المتنبى فى « كافور » ؟ يا لها من تحفة نادرة ، ضن بها علينا المتنبى ؟ ؟ أتراه لم يخطر له هذا قط ؟ فماذا كان يصنع يا ترى حين لا يعالج النظم ؟ لقد كان مقلا ، وليس ديوانه الذى خلفه بالذى يستنفد عمر مثله أو جهده ، فلماذا يا ترى لم يشغل فراغه الطويل بالكتابة ؟ أكان الكلام الجيد لا يؤاتيه إلا منظوماً ، لأن عواطفه لا تتدفق إلا على لحن ؟ وخواطره لا تنتظم أو تتسق إلا على النغم ؟ ربما

وينقص الأدب العربى — فى رأيى — اعترافات رواته ، فقد ملأوا عالمه بالدخيل والمنحول والمخترع ؛ وتركوا لنا نخل ذلك كله وغربلته ، فليت واحداً منهم كانت له جرأة « روسو » اذن لارتفعت عن الباحثين تكاليف ثقيلة ، ولاستغنوا عن هذه الغرابيل التى لا نراها تغربل شيئاً ، ولأمكن أن تنفق الأعمار التى تضيع فى هذا البحث ، فيما هو أجدى . ولو أن الرواة كتبوا اعترافات لخلفوا لنا قصصاً من أمتع ما فى الآداب ، غربيها وشرقيها ، ولكشفوا لنا عن خصائص ، نفسية وعقلية ، ينفع الناس العلم بها ، ولتسنى أن نملل هذه الفوضى التى أغرق فيها الرواة أدبنا ، ولاسيما القديم منه . ومن الذى لا يشتاق أن يعرف لماذا كان الواحد منهم ينظم الأبيات ثم يحشرها فى قصيدة لشاعر قديم ، أو يخترع القصة أو النادرة ويعزوها إلى هذا أو ذاك من الأولين ، ويصر على أن الأمر حق وأنه صادق ، ويزعم أنه أخذ ذلك عن فلان وعلان ، أو تلقفه من أفواه البدو الضاربين فى الصحراء ؛ والغريب من أمرهم أنهم ينزلون عن مزية كبيرة فى سبيل مزية أصغر منها ، ذلك أن اختراعاتهم وتصنيفاتهم تدل على خصب فى القريحة ، وعلى قوة الخيال ونشاطه ، بل على وجود ملكات كافية لأن يكون الواحد منهم شاعراً مجيداً أو قصاصاً بارعاً ؛ ولكنهم يزهدون فى ذلك ، ويظلمون أنفسهم ، ويقنعون بأن يكونوا رواة فحسب ؛ أى حفاظاً ليس إلا ؛ أى خزانة مفتاحها فى لسانهم ؛ وأغرب من ذلك أنهم لو قنعوا بما حفظوا ، وتوخوا الأمانة فى الحفظ والرواية ، لعدوا علماء ، ولكانوا محل الثقة والاطمئنان ؛ ولكنهم يأبون لأنفسهم منازل الكرامة ، ويروحون يزوّرون ويفترون ويلفقون ، ويظهرون فى ذلك من الحذق والبراعة مالو أظهروا بعضه فى غيره لرفعهم مقاماً عالياً . فلا بد أن يكون هناك عوج فى طباعهم والتواء فى عقولهم يزينان لهم الطريق الذى سلكوا ، ويعدلان بهم عن المنهج الأقوم ، ويغريانهم باهمال مواهبهم ، أو سوء استخدامها

وعلى ذكر الاعترافات أقول إنى لا أحب أن أقرأ اعترافات لذلك النواسى الفاجر ، وليس هو بأفجر من سواه من أصحابه فى زمانه ، ولكنه أظهرهم لأنه أعلاهم لساناً وأقواهم بياناً ، ومثل سيرته لا يزيد الناس فهماً للحياة وحسن إدراك لها ، وما فى الأمر إلا أنه كان أجرأ فلم يكتم نقائصه ، كما يفعل غيره ، ولم يحاول أن يستتر لما ابتلى ، ولولا أنه شاعر لما شُغل بقصصه أحد ، والشهرة هى التى جنت عليه فأبرزت جانب السوء والاستهتار من حياته ، ولولا ذلك لكان شأنه كشأن سواه من أمثاله الذين لا يخلو منهم عصر أو شعب . فلو أنه كتب اعترافات لما كانت لها مزية يفيدها الناس ، وماذا كان يمكن أن يكون فى اعترافاته مما يجهله الناس ،

الدكتور محمد اقبال

أكبر شعراء الهند المسلمين فى العصر الحاضر

« ان صوتى قد أوقد النار القديمة(١) فى بلاد إيران
ولكن العرب لا يعرفون شيئا عن نغماتى الشجية »
(اقبال)

بقلم السيد أبو النصر أحمد الحسينى الهندى

شدا صديقنا المفضال الشاعر الفيلسوف الدكتور السر محمد إقبال بهذا البيت فى ديوانه « پيام مشرق » (أى رسالة الشرق) منذ ثلاث عشرة سنة ، ولكنه لم يسمع صدى المعرفة الحقيقية « لنغماته الشجية » من العرب إلى اليوم . وثلاث عشرة سنة مدة طويلة . لأن الشيء إذا مر عليه زمن قليل يقال إنه مضى ودخل فى ذمة التاريخ ، وليس كل ما دخل حصن الماضى نال رعاية التاريخ . لأن مخالب التاريخ الحديدية لا تقتطف إلا ماهو مؤثر مباشرة فى الحوادث المادية ولا تهتم بوجود الكائن الحى بنفسه أياً كان، ولكن هناك أشياء خارجة عن وصول مخالب التاريخ ومؤثرات الزمن مع كونها مؤثرة فى الحوادث المادية . وتلك الأشياء هى الحقائق الملهمة ، ومنها الشعر أو « النغمات الشجية » كما عبر الدكتور . فالحقيقة الملهمة شيء خالد بعيد المرام عن تلاعب الزمن ، وعزيز المنال من مخالب التاريخ ، تظمأ الحياة الانسانية إلى مناسمته فى كل زمان ، وتتطلع إلى مؤانسته فى كل مكان

(١) إشارة إلى أن النار كانت تعبد فى بلاد إيران قبل الاسلام



الدكتور محمد اقبال

وعلى هذا أريد أن أعرف إخوانى الناطقين بالضاد بتلك « النغمات الشجية » وأن أكون على الأقل ترجماناً لها إن لم أكن راوية ، فأقدم اليوم اليهم على صفحات (الرسالة) ترجمة حياة الدكتور بالايجاز ، وسأتبع ذلك بحديث عن شعره وفلسفته وآرائه فى نواحى الحياة المختلفة إذا وفقنى الله لذلك

انحدر الدكتور السر محمد إقبال من سلالة وثنية عريقة فى المجد والشرف من طبقة « پَنْدِتْ » القاطنة ببلاد كشمير فى شمال الهند . و « پندت » لقب يلقب به أهل العلم والفضل من طبقة البراهمة التى هى أرفع الطبقات وأعلاها شرفاً وعلماً ونفوذاً فى النظام الاجتماعى الوثنى فى الهند ، وقد أشار الدكتور إلى ذلك إذ قال :

مرا بنگر كه درهند وستان ديگر نمى بينى
برهمن زاده رمز آشناى روم وتبريز است

« انظر إلى فانك لا تجد فى الهند مثلى من سلالة برهمن ولكنه يعرف رموز روم وتبريز(١) »

تشرفت عائلة الدكتور باعتناق الاسلام قبل مائتين وخمس وعشرين سنة . وذلك أن أحد أجداده اتصل بولى من أولياء الله من الصوفية المسلمين فأشرب قلبه حب الاسلام فأسلم . وكان من

(١) إشارة إلى رموز تصوف مولانا جلال الدين الرومى الصوفى المسلم الشهير وإلى رموز شعر شعراء تبريز مثل حافظ وسعدى

وإن كانوا لا يجاهرون بالعلم به . كل ما كنا خلقاء أن نستفيده هو صورة الحياة ، كما عرفها وعاناها ، فاسق عظيم

وليت دعبلاً ترك لنا مذكرات ! فانه متمرد ظريف ، وليس أحب إلى المرء من الوقوف على مظاهر التمرد ، ولكن التمرد صنيعه فى حياته ، وصنيع شعره معه — أو أكثره — فلو أنه كتب مذكرات لما أعوز خصومه الحطب

* * *

لو ذهبت أذكر ما كنت أتمنى أن أجد فيه كتاباً ، لما فرغت ، فما لهذا آخر ، فحسبى ماأبنت ، وليكن كاشارة الفهرس

ابراهيم عبد القادر المازنى

آثار تلك الحادثة أن حسن الاعتقاد فى الصوفية المخلصين لا يزال من الأوصاف المميزة لعائلة الدكتور إلى اليوم

ولد الدكتور محمد إقبال فى ســنة ١٨٧٦ ميلادية فى بلدة سيالـكوت مسقط رأس فيلسوف الاســـلام العلامة الشهير عبد الحـكيم السيالـكوتى من أقليم بنجاب فى شمال الهند . فلما بلغ سن التعليم أدخله أبوه فى مكتب من المـكاتب الاسلامية فى تلك البلدة ، ومن وهبه الله الذكاء المتوقد والحذق الحاد ظهرت بوادره منذ نعومة أظفاره . كذلك الدكتور إقبال فانه لم تمض عليه مدة قليلة حتى أتم دراسة المـكتب فأدخله أبوه فى المدرسة ، وفى المدرســة أيضاً بقى مثالاً لحدة الذهن وموضع الاعجاب من جميع أساتذته . فانه لم ينتقل من فصل إلى فصل ولم ينل شهادة بعد شهادة إلا بتفوق على أقرانه وباستحقاق مساعدة مالية شهرية من قبل الحـكومة جائزة لنبوغه إلى أن أتم دراسته الثانوية ، وبعد إتمام الدراسة الثانوية دخل الدكتور كلية فى نفس البلدة ، وكان فى تلك الـكلية أحد كبار علماء الدين أستاذاً للغة الفارســية والعربية وهو شمس العلماء مولانا مير حسن [1] الذى كان يشار اليه بالبنان فى الأدب الفارسى والعربى فتتلمذ له الدكتور ونبغ فى الفارسية كما تعلم منه العربية أيضاً . وبعد إتمام دراســة الـكلية انتقل الدكتور إلى كلية الحـكومة ببلدة لاهور حاضرة اقليم بنجاب ونال منها شهادة B. A. بتفوق حيث اسـتحق مداليتين ذهبيتين والمساعدة المـالية الشهرية من قبل الحـكومة . وفى هذه الأثناء انتقلت خدمات المستشرق الشهير السر توماس آرنلد من كلية عليكره إلى كلية لاهور . وكان السر آرنلد هذا مشهوراً بسعة اطلاعه فى علوم الفلسفة ، وكان عند الدكتور إقبال أيضاً ميل غريزى إلى الفلسفة حيث لم يترك دراستها فى نيل جميع شهاداته الماضية فتتلمذ للسر آرنلد . فـكان السر آرنلد يعترف دائماً بذكاء تلميذه المتوقد واستعداده للفلسفة ويفتخر به إلى أن أتم الدكتور دراسة الجامعة ونال شهادة M. A. مع مدالية ذهبية

عين الدكتور بعـد إتمام دراسته مباشرة أستاذاً للفلسفة والسياسة المدنية فى الـكلية الشرقية بلاهور ثم أستاذاً للفلسفة واللغة الانجليزية فى كليـة الحـكومة بلاهور . فصنف فى أيام تدريسه كتاباً فى السياسة المدنية باللغة الأردية . وكان الدكتور طول مدة التدريس فى الـكليتين حسن الصيت فى العلم والفضل عند أساتذتهما ، وممدوح الخلال مأثور المحامد عند تلاميذه

لم يسمح للدكتور عشقه للعلوم وطموحه إلى التوسع فيها بأن يقنع بتلك الوظيفة ؛ فهجر فى سنة ١٩٠٥ وطنه وأقاربه ثلاث ســنوات طلباً للتوسع والمزيد فى الفلسفة والقانون وللتحقيقات العلمية الأخرى إلى انجلترا والتحق بجامعة كمبردج ونال منها شهادة فى فلسفة الأخلاق ، ثم انتقل إلى ألمانيا والتحق بجامعة مونيخ فيها ونال منها شهادة الدكتوراه فى الفلسفة ، ثم رجع إلى انكلترا والتحق بجامعة لندن ونال منها شهادة المحاماة (Bar — at — Law)

إن كثيراً من طلاب الشرق حينما يذهبون إلى الغرب يجدون أنفسهم فى عالم جـديد لم يخطر ببالهم ولا هجس فى ضمائرهم ، إذ الفوضى الأخـلاقية قد استحكمت عراها ، والأباحية قد شيدت وطائد رباها ، وأبواب المفاسد مفتوحة ، ودواعى الخلاعة مسروحة . فيندفعون فى تياره ويضيعون فيــه أوقات فراغهم حتى أوقات أشغالهم ، ولـكن الدكتور لم يضيع أوقاته ، بل كان يستغل حتى وقت فراغه فقد سعى فيه لخدمة الاسلام بتبليغه إلى العوام ، إذ ألقى فى غضون قيامه فى انجلترا ست محاضرات فى الاسلام بين حشد الخاص والعام . وقد منح الله الدكتور العبقرية الشاملة وأسبغ عليه جميع مزايا النبوغ ، فهو ناثر بليغ كما هو ناظم مطبوع ، وكاتب بارع كما هو خطيب مصقع فـكان لمحاضراته رنة بين الناس ووقع حسن فى أوساط العلم والأدب

وإذا كان غاية ما يبتغيه الأستاذ من تلميذه ويتمنى له ، لعكوفه على تعليمه ومكابدته فى تهذيب نفسه وتنوير عقله ، أن يبلغ منزلته فى العلم والأدب ، وأن يقوم بمهمته أتم قيام ، وأن ينوب عنــه أحسن مناب لا يشوبه خلل ، ولا يعتريه أود ولا يخالطه وهن ولا أمْت . فقد بلغ فيــه صديقنا الدكتور إقبال حيث لم تبلغ الآمال والهمم ، إذ الدكتور بذكائه المتوقد ، وفـكره الحاد ، وحصافة رأيه ، وطول باعه فى العلوم والصناعات نال أجل مكان وأخص محـل فى أنظار جميع أساتذته فـكانوا يتباهون به فى السر والعلن ، ويذكرونه فخراً فى مسامرات الأدب وأندية العلم .

وهذا هو الذى حفز أستاذه السر توماس آرنلد أن يفوض إليــه القيام بأعمال وظيفته بجامعة كمبردج لستة أشهر عند غيابه عنها فخلفه الدكتور أستاذاً بالجامعة ، وقام بالمهمة خـير قيام تناقلته ألسنة المديح وناطه الذكر الجميل

رجع الدكتور من أوروبا إلى الهند فى ســنة ١٩٠٨ مزوداً

---

(١) توفى رحمه الله تعالى فى سنة ١٩٢٩ ميلادية

بالعلوم والصناعات ومتأهباً لخدمة وطنه وأبناء دينه ، فاستقبله حشد كبير من جميع الأجناس والطبقات والأديان والملل . وأقيمت فى تكريمه مأدبة فاخرة ليلة وصوله إلى لاهور هنأه فيها أعيان البلد ورؤساء القوم بسلامة وصوله إلى وطنه ، كما اعترف غير واحد من الشعراء والأدباء والعلماء والفضلاء بالقصائد والخطب فيها بعلمه وفضله . ومن ذلك الحين اختار الدكتور لنفسه الحياة الحرة ولم يقبل مناصب الحكومة لكي يجد مجالاً واسعاً لبحوثه العلمية ، وميداناً أوسع لخدمة إخوانه ودينه . فبدأ يمارس مهنة الارشاد القانونى للطالبين

والدكتور بنفسه رجل قنوع ، نزيه ، عزيز النفس ؛ يقنع بالكفاف ويرضى بالميسور ، كما عبر عن ذلك فى بيت من ديوانه : « رسالة الشرق » قال :

ناز شهان نمى كشم زخم كرم نمى خورم
درنگراى هوس فريب همت اين گداى را
« أنا لا أتحمل دلال الملوك ، ولا جرح الاحسان
يا من انخدعت بالطمع ! انظر إلى همة هذا الفقير »

فقد رفض غير واحد من مناصب الحكومة التى قدمت إليه وآخرها منصب ممثل الحكومة الهندية لدى حكومة جنوب أفريقيا وهو منصب ذو مرتب باهظ وشرف عظيم

اشتغل الدكتور بعد رجوعه من أوربا فى تصنيف ديوانين « أسرار خودى » و « رموز بيخودى » على الترتيب باللغة الفارسية . فنالا إعجاب الجميع من ذوى الفضل والعلم ، وترجم الأول الدكتور نكلسن إلى الانجليزية فذاع به صيت الدكتور فى أوربا وأمريكا فمنحته الحكومة فى سنة ١٩٢٣ لقب « السر » اعترافاً بفضله فى الشعر وطول باعه فى العلوم

وفى سنة ١٩٢٦ أجبره أحبابه وأصدقاؤه وأهالى لاهور على أن يرشح نفسه لعضوية المجلس التشريعى فى إقليم بنجاب . فلم يقبل أولاً . فلما ألحوا عليه كثيراً قبله . فانتخب عضواً بأكثرية ساحقة . فسعى الدكتور سعياً حثيثاً لتخفيف الضرائب الفادحة عن كاهل الفلاح الهندى ، ولسن قانون العقاب لكل من يطعن فى شارع الدين أو أحد رؤسائه من غير دينه هو ، وقد سنّ فعلاً ، ولتقرير غاية الاصلاح لادمان الخمر عند الحكومة حرمتها التامة تنفذ فى مدة خمس عشرة سنة . وفى سنة ١٩٢٨ أثار الدكتور فى المجلس بحثاً طريفاً استوقف الأنظار ، وهو هل الأراضى من ملكية الحكومة أو ملكية الشعب ؟ وفى سنة ١٩٣٢ عند انتقاد ميزانية الحكومة أثبت بالدلائل الناطقة والشواهد الصادقة أن الأراضى ليست من ملكية الحكومة فلا يجوز للحكومة جمع المال بالضرائب الفادحة على أراضى الفلاح

وفى سنة ١٩٣١ انتخبته الحكومة عضواً فى مجلس المائدة المستديرة المنعقد فى لندن لاصلاح الهند الدستورى فسافر إلى لندن وعند الرجوع لبى دعوة المؤتمر الاسلامى بالقدس وزار مصر أيضاً وألقى على طلبى منه محاضرة قيمة فلسفية دقيقة فى جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة موضوعها « الاسلام كالتحول فى التاريخ » باللغة الانجليزية ، ولكن من الأسف لم يقدر أحد من السامعين ولا من أركان إدارة الجمعية أن ينقلُ تلك المحاضرة القيمة المفيدة إلى العربية للحاضرين أو يكتبها على الأقل وينشرها على صفحات الجرائد للافادة

وفى أواخر سنة ١٩٢٨ دعى الدكتور من قبل جمعية اسلامية ببلدة مدراس حاضرة اقليم جنوب الهند لالقاء محاضرة فى الاسلام ، فلبى الدعوة ، فلما وصل إلى مدراس احتفل به أهالى مدراس من جميع الأجناس والملل احتفالاً باهراً ، وأقيمت فى تكريمه مآدب كثيرة من قبل جمعيات مختلفة منها جمعية العلماء البراهمة وغيرها من جمعيات الوثنيين ؛ ومن مدراس توجه الدكتور إلى حيدر آباد تلبية لدعوة صاحب السمو نظام حيدرآباد فمر بأمارة ميسور ، وهى أمارة وثنية كبيرة فى جنوب إمارة حيدر آباد ، فلما وصل بنجلور بلدة من بلادها استقبله حشد كبير من الطلبة والعلماء والوجهاء ، وكان بينهم رئيس الوزراء لأمارة ميسور أمين الملك ميرزا اسماعيل (وهومسلم) فسافر معهم إلى بلدة ميسور حاضرة إمارة ميسور ، ونزل ضيفاً على الأمير الوثنى مهاراجا ميسور ، وأقيمت فى تكريمه مآدب كثيرة أهمها مأدبة جامعة ميسور التى خطب فيها الدكتور ، وفى هذه المأدبة خطب عالم وثنى كبير وهو أستاذ الفلسفة بالجامعة فقال : « إن المسلمين مهما قالوا إن الدكتور اقبال منهم ، فان الحقيقة أنه منا جميعاً ، هو ليس من ملك دين واحد أو جماعة واحدة ، فان افتخر المسلمون بأنه من أبناء دينهم ، فلسنا نحن الوثنيين بأقل فخراً منهم بأنه من أبناء وطننا الهند » . ومن ميسور توجه الدكتور إلى حيدر آباد ، فاستقبله جمع غفير من جميع الأجناس والملل ، بينهم أركان الحكومة وأساتذة الجامعة وطلبتها وغيرهم من ذوى

الجاه والشرف ، وكان طلبة المدارس مصطفين فى الشوارع والمحطة ويغنون بأصواتهم الشجية « نشيد المسلم » الذى صنفه الدكتور باللغة الأردية وأوله :

جين وعرب هارا ، هندوستان هارا

مسلم هين هم وطن ، هى ساراجهان هارا

« إن الصين والعرب لنا ، (كما) أن الهند لنا

اننا المسلمون ، فالعالم كله وطننا »

نزل الدكتور ضيفاً على سمو نظام حيدر آباد وحظى بالمثول فى حضرة سموه ، وألقى محاضرات عديدة بالجامعة العثمانية بحيدر آباد ، ثم توجه من حيدر آباد إلى الجامعة الاسلامية بعلى قره تلبية لدعوتها ، فألقى فيها أيضاً غير محاضرة ؛ وجميع هذه المحاضرات التى ألقاها فى مدراس ، وحيدر آباد ، وعلى قره ، ست تحتوى على أعمق الأفكار وأدق المعانى ، فى فلسفة دين الاسلام ، وقد سمى الدكتور فيها لتشكيل علم الكلام الجديد على ضوء الفلسفة الحديثة ، وقد نشرت فى شكل كتاب ونحن مستمدون أن نتحف قراء الرسالة بشىء منها لو تحملوا جفاف الفلسفة فى جنب حلاوة الأدب

وفى سنة ١٩٣٣ دعا الدكتور المغفور له جلالة الملك نادر شاه خان ملك أفغانستان مع عالمين كبيرين هنديين وهما الافوكاتو السيد راس مسعود رئيس الجامعة الاسلامية بعلى قره ، وصديق صاحب الفضيلة الشيخ السيد سليمان الندوى من كبار علماء الدين للاستشارة فى تأسيس جامعة بكابل ، وفى أمور تعليمية أخرى . فلبى الدكتور الدعوة ، وفى هذا السفر صنف الدكتور ديوانه المسمى « مسافر » باللغة الفارسية

وفى سنة ١٩٣٤ سافر الدكتور لزيارة البلاد الاسلامية فى المغرب ولمشاهدة الآثار الاسلامية فى الأندلس وصنف فى هذا السفر ديواناً باللغة الأردية مسمى « بال جبريل » وفى أواخر نفس السنة دعى الدكتور إلى انجلترا لالقاء محاضرات فى فلسفة الدين فى سلسلة محاضرات هيبرت Hibbert Lectures فلبى الدعوة

هذه هى ترجمة حياة الدكتور بالاختصار وموعدنا بالحديث عن شعره المقال الآتى إن شاء الله ؟

السيد أبو النصر أحمد الحسينى الهندى

من بدائع شكسبير (١)

حلم منتصف ليلة صيف

« A Midsummer Night's Dream »

بقلم محمد رشاد رشدى

يحملنا جو القصة أجيالاً عديدة إلى الوراء حيث (ثيزيوس) دوق أثينا بعد قصره للاحتفال بقرانه بملكة الأمازون الساحرة . أما أسلوب القصة فهو ملئ بالصور الخلابة التى تشيع فى الذهن جواً يشبه جو الحلم الغريب . كذلك تنتشر أشخاص الجن التى ما تزال تظهر ثم تختفى فى القصة روحاً غريبة نائية حالمة . . . . والحب ـ سيد خالق الأحلام والخيالات ـ هو موضوع القصة ... بيد أنه ليس بالحب الداعب اللاهى تحمله السطور فى خفة ورشاقة مقبلاً حيناً مدبراً حيناً آخر . بل هو حب قوى قاهر يبهر النظر والسمع ويأبى إلا أن تعبر عنه الاستعارة والمجاز واللغة الشعرية الحارة . تبعثه من الصدر مثلما تبعث ليلة مقمرة هادئة من ليالى الصيف شعر شاعر من صدره ، أو زفرة عاشق من حنايا ضلوعه

(ليساندر) و (هرميا) يتفقان على اللقاء :

ليساندر : فى مساء الغد عند ما تبصر (نيبى) طلعتها فى البحيرة ناشرة على العشب الأخضر لباساً من اللؤلؤ السيال — فى ذلك الوقت قد اتفقنا على أن نجتاز أبواب أثينا ونمضى هاربين

هرميا : وفى نفس الغابة حيث اعتدنا اللقاء ، وحيث كنا أحياناً نرقد على العشب اللين الرخص ونشم أنفاس الزهر الوحشى . هناك يلتقى أحدنا الآخر ، أى ليساندر !

ويضل كل من العاشقين سبيله وينهكهما البحث والفكر فيرقد كل تحت شجرة من أشجار الغاب ويغلب عليهما النعاس فما يدريان من أمرهما شيئاً ، ويأتى (پك) رسول ملك الجان فيهصر فى عينى الفتى زهرة من أزهار الغاب سحرية تغير قلبه

(١) استعرت هذا العنوان من رسائل أستاذى الجليل محمد فريد أبو حديد التى كان ينشرها تحته فعسى أن يسمح الأستاذ لى بالاستعارة وعسى أن أوفق فى إيفاء الاسم بعض ما وفاه هو من الحق

حتى إنه إذا ما صحا من نومه وقع فى حب أول امرأة يلقاها . . . وفى نفس الوقت يهيم فى الغاب الفسيح (ديمتريوس) عاشق (هرميا) المنبوذ منها تتبعه (هيلينا) التى ينبذها هو ولا يصغى لما تريد أن يصل أذنه من ألفاظ الحب والتوسل . بيد أن (پَك) سرعان ما يأتيه هو الآخر بالزهرة السحرية فيغير قلبه ، ويصبح فاذا به مدله فى حب (هيلينا) ، ويهيم العشاق فى الغاب كل يبحث عن أليفه تارة متباطئاً وأخرى مسرعاً . تراقبهم من عل أشجار البلوط الشاهقة ويظلهم الليل فى ردائه الهادىء . ونبسم نحن إذ نرى كيف يتغيرون . كيف يشكون وكيف يتدلهون — على أننا لا يسعنا إلا الاشتراك فى كل ما يفعلون

هذه العاطفة هى حلم ، غير أنه حلم يحركنا ، فان الشاعر يلعب بالعواطف فيخلطها ويمزجها سوياً ثم يثنيها ثم يعود فيفصلها ويقيم كلا منها على حدة كأنما هى خليات رقصة جميلة ، ونشاهد نحن الوجوه الفضة الوديعة تمر سريعة إلى جوار الشجيرات الخضراء وتحت أبصار النجوم اللامعة ، تبللها حيناً دموع الشوق والألم ويشيع فيها حيناً آخر بريق الحب والأمل . . .

أولئك قوم قد وهبوا أنفسهم للحب خالصة لا يبغون من عطائهم هذا جزاء ولا مقصداً ، وإنما هى هبة نقية خالصة لأنها موجهة لله لا للشيطان ، وللحب الخالص لا لشهوات البدن

هى – فى الحق – هبة للجمال الذى يخالج مشاعرهم ويملك عليهم حسهم وفكرهم – وإن مرآهم يألمون ثم يسعدون – يشكون ثم يفرحون ، يطربهم التافه من الخير ، ويعصف بهم خالج الفكر البسيط ، تحنو عليهم بنات الغاب ساعة مداعبات ، ثم تسخرن بهم ساعة أخرى لاهيات – لهو نوع من السحر المبين . . .

ونشاهد بين الحين والآخر جماعة من القرويين يتدربون على تمثيل قطعة مسرحية يحيون بها حفل زواج أميرهم (تيزيوس) – أولئك قوم بسطاء مثل كل أهل الريف يعيشون عيشة طبيعية بسيطة لا يشغل فكرهم خاطر ولا يعذبهم شك لاهين قانعين مؤمنين كل الايمان بالحياة ، بعيدين كل البعد عن بحثها والتأمل فيها . ويفزعهم مرآى رفيقهم (بوتوم) وقد أتاهم يحمل فوق عنقه رأس حمار فيصيح أحدهم :

« يا للشيطان ! يا للغرابة ! لقد زارنا ابليس
صلّوا أيها الرفاق – اهربوا أيها الرفاق – المعونة ! »

كان هؤلاء رجالاً من المحتمل أن يكون شكسبير قد رأى وخبر أمثالهم فى بلدته ، لأن الدرامة لم تعد بعد مقصورة على بلاط الملوك والأمراء ، بل عمت البلاد والقرى جميعها ، وأصبحت وكأنها ضرورة من ضرورات العيش ومرفقاً من مرافق الحياة لا ينفصل عنها ، ولقد كان كل عيد من أعيادهم مهرجاناً عظيما يشترك فيه الصغير والكبير ويتعاون على إقامته الجميع ، إذ أن القوم فى ذلك العهد كانوا يعشقون التمثيل ويجيدونه بالطبيعة ، لأن الروح إذا ما كانت ناضجة ممتلئة فهى لا تميل إلى التعبير عن خواطرها بالأرقام والمنطق ، بل تعمد إلى تصورها فتقصها وتقلدها ، تلك هى لغة الأطفال ، لغة الفن والخلق والسرور

وفوق كل هؤلاء العشاق والممثلين البسطاء تلهو وترفرف بأجنحتها جماعة الجن وبنات الغاب . هم أيضاً يعشقون (فتيتانيا) ملكتهم التى تحب صبياً صغيراً أتت به من بلاد الهند ، ويغار زوجها (أوبرن) منه فيريد أن يبتاع الصبى منها على أنها لن تنيله ما يريد : تيتانيا : لو اجتمعت الجن كلها لما استطاعت أن تبتاع منى هذا الصبى ، كانت أمه من أتباعى ولكم جلسنا جنباً إلى جنب على رمال نبتون الصفراء فى الليل الهادىء ، تهب علينا نسمات الهند العطرة ، نرقب السفن يحملها الفيضان فوق تياره سريعة تتسابق – وكم كنا نضحك عند ما نرى الشراع وقد حملت وانتفخت منها البطون ، وكانت الريح العابثة هى الزوج أو العاشق المسئول

ويتشاجر (أوبرن) مع زوجه فتهرع الجن خائفة إلى أكمام الزهر تختبىء فيها وتتخذ منها ملجأ يقيها غضب الملك والملكة

ويريد (أوبرن) أن يثأر لنفسه ، فيرسل خادمه (پَك) يلمس بالزهرة السحرية أجفان زوجه ، حتى إذا ما صحت أجمل بنات الغاب وأرشقهن من سباتها وجدت نفسها مدلهة بحب مخلوق عجيب له رأس حمار وجسم رجل ، هو (بوتوم) القروى الممثل

وتركع الملكة أمام المريض المسحور ، وتضع فوق كتفه المليء بالشعر اكليلاً من الزهر النضر ، ثم تنادى أتباعها وتخاطبهم :

« ترفقوا بهذا الرجل وأحسنوا مثواه ؛ غنوا له وارقصوا أمامه كلما مشى خطوة ، أطعموه المشمش ، والعنب ، والتين الأخضر والتفاح »

كان لزاماً على (تيتانيا) أن تفعل هذا ، لأن حبيبها كان ينهق نهيقاً فاحشاً ، وكان إذا ما قدمت له الزهور والفاكهة هز رأسه فى طلب الهشيم والبرسيم !

أهناك أعذب وأمر من سخرية شكسبير هذه ؟ أى هزء بالحب ، وأى حدب عليه ! العاطفة فى نفسها نبيلة ، بيد أن موضوعها تافه حقير ، هى فراش ذهبى لكنه يطير فى الوحل ، فراش أعمى لا يدرى أين يسير

وشكسبير إذ يصف كل آلامها يحتفظ أيضاً بكل ما هو حلو وجميل فيها

تيتانيا : تعال نجلس فوق هذا الزهر ، دعني ألمس وجنتيك الجميلتين وأرشق الورد فى رأسك الناعم ، وأقبل أذنيك الطويلتين الحلوتين

لقد طمس الحب عيني ملكة الغاب فباتت ترى فى صدغى الحمار جمالاً ، وتلمس فى رأسه نعومة ، وتحس فى أذنيه حلاوة وطراوة

وينقضى الليل ، ويأتى الصباح فيبطل السحر ويزول ، وتفيق (تيتانيا) إلى نفسها فتبدو لها ذكريات الأمس (مثل أشياء صغيرة يصعب تمييزها ، فكأنها رؤوس جبال نائية يراها الانسان عن بعد كالسحب الكثيفة قد تجمعت فوق الأفق)

هذه هى القصة ، فهل لنا أن نناقشها جدياً مثلما نناقش (هملت) أو (عطيل) ؟ هل لنا أن نفرض منطق الحياة على حوادثها وأسلوبها وأشخاصها ، أو أن نبحث عن الجمال والانسجام فى كيانها وتركيبها ؟

لا ، فنحن إن فعلنا ذلك بعدنا عن الروح التى يجب أن نتفهمها فيها

هذه القصة لا تصور الحياة بل تمثلها — هى تمثل الناحية الحلوة الناعمة السهلة الهادئة من العيش مثلما تصور قصة (لير) الناحية الأخرى العاصفة ، المظلمة ، المريرة ، الموحشة

على أن الحياة ليست دائماً عاصفة موحشة ؛ كما أن القبرة لا تنشد كل يوم ألماً ونحيباً ، فهناك فى حياة الرجال لحظات يحسون فيها بجسومهم ، وأرواحهم ، وقد رقت وصفت وارتفعت فأصبحت فى صفاء نسمات الخريف تهب عند الأصيل ، وفى هذه اللحظات يكفى أن يثلج أفئدتهم ويملأها طرباً وحبوراً أن يشاهدوا زهرة جميلة قد تفتحت أكمامها ، وتلألأ على أوراقها ندى الشروق ، وأن يحرك مشاعرهم ويملأها عطفاً ورقة وحناناً ، مرأى كلب بائس ينبح ألماً ويتضور جوعاً

ذلك لأن فى النفس حينذاك لحناً ونشيداً يعزف ، فاذا كل ما بالعيش قد أصبح بهياً جميلاً ، وإذا كل ما يدب على الأرض قد أمسى طيباً وديعاً كالحمل ، ذلك أن بالروح موسيقى تسبغ الدفء والسلام والحب على كل شيء خارج الروح : موسيقى (أحلى من نغم الكروان ، يسمعه الراعى وقد ترعرع قمحه ومشى النضوج فى سنابله) ؛ فهل نترك تلك الأوقات السعيدة دون أن نسجلها

إن أكثر الواقعيين تطرفاً ، وأشدهم تشاؤماً وانقباضاً لا يستطيع أن ينكر وجود أمثال تلك اللحظات ، فان هو فعل فقد ترك انتاجه ناقصاً مبتوراً ونفسه ضيقة يعوزها الاتساع والبسطة ، على أن شكسبير الكامل لم يكن يستطيع أن يكون ناقصاً ، فلم تكن تلك الأوقات النادرة لتمر دون أن يرقبها ويسجلها معاً

لقد سجلها الشاعر كما يجب أن تسجل — أعني أنه لم يصورها كما هى فى الحياة — لم يرسم لنا أحلام الشباب نفسها ، يحلمها وهو يقظان فتسعده وتزكى خياله ، بل صور لنا عالماً جميلاً غريباً حتى إذا ما تعرفنا إليه ودخلناه[1] أحسسنا نفس ما يحسه الشباب الحالم من سعادة ودفء وسلام ، وكانت المشاعر التى تختلج بها نفوسنا حينذاك هى نفس المشاعر التى تنتجها هذه الأوقات السعيدة فى حياة الرجال

أقول إن شكسبير كان واقعياً حتى فى أحلامه وخيالاته وقد يبدو هذا القول غريباً ، على أن شرحه سهل بسيط ؛ فكثير من الناس يحسب أن الفنان ساعة الخلق يقلد مظاهر الطبيعة نفسها ويصورها فان هو قلد — فى زعم هؤلاء — شيئاً لا يراه الجميع فى الطبيعة ويحسونه — كان تقليده خاطئاً وخلقه وهماً باطلا ، وعندى أن هذا الرأى خاطئ من أساسه ؛ فالحق أن الفنان لا يقلد مظاهر الطبيعة نفسها ، بل يدرس ويقلد السبيل الذى

(١) شأن الشاعر فى ذلك شأن الموسيقى يصف لنا أنغامه وصفاً فنياً ، فتحدث فى النفس الأثر المرغوب من راحة أو ثورة ومن حزن أو فرح ، وهى لو أخذت كل نغم على حدة لما تركت فى النفس أثراً من الآثار

تسلكه الطبيعة فى خلق مظاهرها ، وإنما هى الآلة المصورة التى تعنى بتصوير هـذه المظاهر دون أن يهمها تقليد السبيل الخالقة وتصويرها . ومن هذا يكون الحكم على العمل الفني من حيث قربه من الواقع والحق لا يتعلق بمحتويات العمل نفسه بل بالاحساس الذى تنتجه هذه المحتويات على القارئ أو المشاهد أو المستمع

فشكسبير هنا لا يعطينا هذه اللحظات السعيدة فى حياتنا نفسها بل ما قد تنتج هذه اللحظات أو ما يقرب منها

إن ما يعطينا الشاعر هو حلم حلمه ساعة منتصف ليـلة صيفية حيث يرق النسيم ويصفو ، ويهدأ الفكر ويرتاح البدن ، ذلك هو كائن دقيق يهيم وينتقل من حلم إلى حلم ، له أجنحة فضية رقيقة تتكسر جميعها وتتلاشى إذا ما حاولنا أن نحبسه أسيراً فى سجن العقل والمنطق وأن نضيّق الخناق عليه هناك.. فليس من الواجب أن نخبر طبيعة هـذا الكائن ولا أن نديم البحث فى حقيقته بل ندعه يمضى أمام أبصارنا ترفرف فوقه أجنحته الجميلة ، فيبهر منا البصر ويحملنا معه إلى عالم الأحلام من حيث أتى . وهل هناك أحلى من أن نترك حياة الحقيقة هذه وراءنا لحظة لنريح الفكر فى حياة اللاحقيقة ؟

لقد يسعدنا أن نتحرر من أسر المنطق الثقيل لنمضى ونحيا حياة المغامرة والغرابة والشعر حيث لا قيـد ولا شرط — مثل هذه الحياة للعقل تريحه وتجدد نشاطه ، وللنفس تنقيها وتنضجها ، ولكننا يجب أن نصدّق ما نراه لكى نستمتع هذه المتعة ونستريح هذه الراحة

نعم. إن بالقصة ما لا يمكن تصديقه وما لا يمكن وقوعه فى الحياة ، لكن عدم الامكانية هذا هو الذى قد يمد العقل بالراحة والهدوء إذ أنه يجرد العواطف من حرارتها فلا يجعل المشاهد يتألم أو يشق ؛ فاذا ما جاءت اللحظة التى يقوى فيها إحساسه بالقصة ويشتد عطفه يذكر نفسه بأن الموضوع كله حلم وخيال فقط ، فتهدأ نفسه ويبدأ يرى حوادثها مثل أشياء بعيدة نائية يكسوها البعد لباساً من الهواء أزرق شفافاً

ولكن أترى ينقص عدم الامكانية هذا من قيمة القصة أو يحط من مغزاها ؟ ثم ترى هل الحياة خالية كل الخلو من الجنى المداعب (بك) ورفقائه ؟

لا ! إن بنات الغاب يعشن فوق أرضنا هذه من وقت لآخر مداعبات حيناً نفوس الشباب وقلوبه ، حدبات حيناً آخر على عقول رجال الأعمال الجامدة وأفئدتهم الصلبة ، وأحياناً مشفقات منشدات للفقير والمكلوم أناشيد الراحة والأمل ، ونحن نخشى (بك) الساحر ولكننا لا نراه — نحسه يسير معنا فى حياتنا ، ونحس سحره الفعال كما صوره شكسبير يغير رؤوس الرجال : إلى رؤوس الحمير والبغال — بيـد أن سحره قوى لا يقاوم مرغوب من الناس محبوب من الشعراء . . .

أحب أن أقول إنه برغم كل ما بهذه القصة من شذوذ وغرابة فانها تطابق الحياة والواقع ، ولا تقل فى هذا عن قصة (لير) أو (هملت) — تطابق الحياة فقط فى أن الاحساس الذى تنتجه فى النفس هو إحساس صادق حقيقى كثيراً ما نحسه فى حياتنا ، العادية ونحتاج إليه ، ولو أن ما بالقصة نفسها يختلف عن الحياة وذلك نوع من أنواع الخلق الفنى النادر ، ومثل من أمثلة الفن الايمازى الذى ما أحسب أحداً غير شكسبير يستطيعه بسهولة ووضوح

لقـد نحلم أحياناً عند ما نسمع لحناً شجياً أو نرى وجهاً بهياً . بيد أن الشاعر هنا يدعونا لأن نحلم عند ما نقرأ شعره . فهل نرفض الدعوة ؟ إن الحلم الهادىء الجميل نادر فى هذا العيش ، وإن الاحساس بالراحة والطمأنينة وحلاوة الحياة الذى يعقب الحلم ويقطن النفس بعد رحيله عنها أندر من الحلم نفسه وأثمن . . .

فلزام علينا إذن أن نقبل دعوة الشاعر ، وأن نقبلها فرحين شاكرين ؟

محمد رشاد رشدى

بكالوريوس بامتياز فى الأدب الانجليزى

١٠ – شاعرنا العالمى

ابو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

حماقاته : روى صاحب الأغاني عن الحسن بن على قال : حدثنا محمد ابن القاسم قال : حدثني اسماعيل بن عبد الله الكوفى قال : حدثني عمروس صاحب الطعام ، وكان جار أبي العتاهية قال : كان أبو العتاهية من أقل الناس معرفة ، سمعت بشراً المريسي يقول له : يا أبا اسحاق لا تصل خلف فلان جارك وإمام مسجدكم فانه مشبه ، قال : كلا إنه قرأ بنا البارحة فى الصلاة « قل هو الله أحد » ، وإذا هو يظن أن المشبه لا يقرأ قل هو الله أحد

وقد ذكرنا عن مخارق فيما سبق ما جرى لأبي العتاهية معه حينما دعاه فغناه وشرب معه ثم أمر غلامه فكسر كل ما بين أيديهم من النبيذ وآلته والملاهي ، قال مخارق : فظننت أنها بعض حماقاته ، فانصرفت وما لقيته زماناً ، ثم تشوقته فأتيته فاستأذنت عليه فأذن لى ، فدخلت فاذا هو قد أخذ قوصرتين وثقب إحداهما وأدخل رأسه ويديه فيها ، وأقامها مقام القميص ، وثقب أخرى وأخرج رجليه منها وأقامها مقام السراويل ، فلما رأيته نسيت كل ما كان عندى من الغم عليه والوحشة لعشرته ، وضحكت والله ضحكا ما ضحكت مثله قط ، فقال : من أى شىء تضحك ؟ فقلت : أسخن الله عينك هـذا أى شىء هو ؟ من بلغك عنه أنه فعل مثل هذا من الأنبياء والزهاد والصحابة والمجانين ؟ انزع عنك هذا يا سخين العين ، فكأنه استحيا مني ؛ ثم بلغني أنه جلس حجاماً ، فجهدت أن أراه بتلك الحال فلم أره ، ثم مرض فبلغني أنه اشتهى أن أغنيه ، فأتيته عائداً ، فخرج إليّ رسوله يقول : إن دخلت إليّ جددت لى حزناً ، وتاقت نفسى من سماعك إلى ما قد غلبتها عليه ، وأنا أستودعك الله وأعتذر إليك من ترك الالتقاء ، ثم كان آخر عهدى به

وذكر بشر بن المعتمر أنه قال يوماً لأبي العتاهية : بلغني أنك لما نسكت جلست تحجم اليتامى والفقراء للسبيل ، أكذلك كان ؟ قال : نعم ، قال له : فما أردت بذلك ؟ قال : أردت أن أضع نفسى حسبما رفعتني الدنيا ليسقط عنها الكبر ، وأكتسب بما فعلته الثواب ، وكنت أحجم اليتامى والفقراء خاصة ، فقال له بشر : دعني من تذليل نفسك بالحجامة ، فانه ليس بحجة لك أن تؤدبها وتصلحها بما لعلك تفسد به أمر غيرك ، أحب أن تخبرنى هل كنت تعرف الوقت الذى كان يحتاج فيه من تحجمه إلى إخراج الدم ؟ قال : لا ، قال : هل كنت تعرف مقدار ما يحتاج كل واحد منهم إلى أن تخرجه على قدر طبعه مما إذا زدت فيه أو نقصت منه ضر المحجوم ؟ قال : لا ، قال : فما أراك إلا أردت أن تتعلم الحجامة على أقفاء اليتامى والمساكين

قالوا وإنه من أجل هذا وأشباهه غلب عليه هذا اللقب « أبو العتاهية » وقد أخبر ميمون بن هارون عن بعض مشايخه قال : كنى بأبي العتاهية أن كان يحب الشهرة والمجون والتعته . وأخبر محمد بن موسى بن حماد قال : قال المهدى يوماً لأبي العتاهية أنت إنسان متحذلق متعته ، فاستوت له من ذلك كنية غلبت عليه دون اسمه وكنيته وسارت له فى الناس ، قال : ويقال للرجل المتحذلق عتاهية ، كما يقال للرجل الطويل شناحية ، ويقال أبو عتاهية باسقاط الألف واللام

ومن المحتمل عنـدى أن يكون تلقيبه بذلك من أجل ابنه عتاهية الذى روينا عنه فيما سبق بعض أخبار أبيه ، وأن تلك الأمور التى نسب اليه من أجلها هـذا الحمق كان يتحامق بها لأغراض له فيها ، وقد تحمل الأغراض بعض ذوى العقول على هذا التحامق فلا يكون لهم منه بد ، كما قال الشافعى رحمه الله وقد جرى بينه وبين بعض من صحبه مجانة :

وأنزلنى طولُ النوى دارَ غربة
إذا شئت لاقيتُ امرأً لا أشاكلهْ

أحامقه حتى يقال سجية
ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

ويمكن أن يكون من تلك الأغراض التى حملت أبا العتاهية على ذلك اتقاء ما كان يدبر له من ضروب الكيد ، ومحاولة الايقاع به ، وأخـذه بتهمة الزندقة وما إليها ، فان ظهوره بهذا المظهر يهون من أمره ، ويجعله امرأ لا يخاف شره

ويؤيد هذا ما رواه أبو الفرج قال : أخبرنى محمد بن الصولى قال : حدثنا أبو ذكوان قال : حدثنا العباس بن رستم قال : كان

حمدويه صاحب الزنادقة قد أراد أن يأخذ أبا العتاهية ففزع من ذلك وقعد حجاماً

وإذا كان خوفه من حمدويه هو الذى حمله على أن يحترف هذه الحرفة التى ليست من شأنه ، لا ما تظاهر به من إرادة تذليل نفسه ، فيمكننا أن نحمل على ذلك كل تلك الحماقات التى تؤثر عنه ، ونخرجها على ذلك التحامق الذى يقصد به مداراة أهل الظلم والحمق

وقد كان أبو العتاهية يعتمد فى هذه الحياة المضطربة التى عاش فيها على ضروب من الحيلة كان يجيد تمثيلها ، ولولاها لطاحت رقبته فيمن طاحت رقابهم ممن لم تساعفهم الحيلة فى تلك البيئة ، ولأبى العتاهية فى ذلك نوادر لطيفة كان يتوصل بها إلى ما يعجز عنه غيره ، ويحوز بها القبول لدى أرباب الحل والعقد فى عصره من رجاله ونسائه ، ولنختم هذا الفصل بتلك النادرة الظريفة من نوادره

ذكر أبو بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى أن أبا العتاهية لما ألح فى أمر عتبة لأول دخوله بغداد ولم ينل منها شيئاً ، وجدها يوماً قد جلست فى أصحاب الجوهر ، فمضى فلبس ثياب راهب ، ودفع ثيابه إلى انسان كان معه ، وسأل عن رجل كبير من أهل السوق ، فدل على شيخ صائغ ، فجاء إليه فقال : إنى قد رغبت فى الاسلام على يدى هذه المرأة ، فقام معه وجمع جماعة من أهل السوق وجاءها فقال : إن الله قد ساق إليك أجراً ، هذا راهب قد رغب فى الاسلام على يديك ، فقالت هاتوه ، فدنا منها فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وقطع الزنار ودنا فقبل يدها ، فلما فعل ذلك رفعت البرنس فعرفته ، فقالت نَحُّوهُ لعنه الله ، فقالوا لا تلعنيه فقد أسلم ، فقالت إنما فعلت ذلك لقذره ، فعرضوا عليه كسوة فقال ليس لى حاجة إلى هذه ، وإنما أردت أن أشرف بولائها ، فالحمد لله الذى من على بحضوركم ، وجلس فجعلوا يعلمونه الحمد وصلى معهم العصر ، وهو فى ذلك بين يديها ينظر إليها لا تقدر له على حيلة ؟

عبد المتعال الصعيدى

اسطورة يونانية : « اورفيوس ويوريديس »

الألم

[مهداة إلى شاعر يتألم : إلى الصديق محمد الفراتي]

للأستاذ خليل هنداوي

« أعيدوه الى أرض الحياة وحده ! إن عوده سيسكت اذا عادت معه ، وان قيثارة الأرض ستنقص وتراً ، انى أريده يغني فلا تعطوها له . نحن في السماء كما على الأرض نتلذذ بالآلام المولدة »

قد أطربَ الطيرَ بأنغامه   وسهَّدَ الوحشَ بألحانِه
يغيبُ عن إحساسه ذاهلاً   منتقلاً في غير أوطانه
يشكو إلى القيثارِ أشجانَه   فيملأُ الكونَ بأشجانِه
سكرانُ ! لا يُدركُ ما مسَّه   نشوانُ ! لا يَخرجُ من حانِه

* * *

البحر والأمواجُ تصغى له   والليلُ إن أسبلَ أستارَه
يأوى إلى عزلتِه حائراً   يُذيعُ في العزلةِ أسرارَه
ما بالُه يُعولُ قيثارُه   فحطموا الليلةَ قيثارَه
هو الهوى امتدَّ إلى قلبه   وأضرمَ الحبُّ به نارَه

* * *

وهذه من أيقظتْ روحَه   تسرحُ في الغابةِ كالحالمه
خاليةُ القلبِ ، تلاقى الفتى   معرضةً عن حبِّه ، واجمه
لا تفهمُ اليومَ نداءَ الهوى   لا توقظوها ! إنها نائمه
يا هائماً قد لجَّ منه الجوى   إنهدْ إلى غانيةٍ هائمه . . .

* * *

سيفتحُ القيثارُ من نفسِها   ما تعجزُ الأزهارُ عن فتحِه
ويفتحُ الألحانُ محزونُها   جرحا بها أعمقَ من جرحِه
وينقلُ النغمُ إلى سمعِها   ماراحَ يشكو الصبُّ من برحِه
لا تُنزلى الرأفةَ في قلبِها !   فانما الإبداعُ في نوحِه . . .

* * *

طفا على الكون سكونُ الدجى   وقد غفا غيرُ عيونِ الزهرْ
وخفَّ في الأجواء عبقُ الشذا   ونامتِ الأكوانُ إلا القدَرْ
هبَّا إلى الرقص يُحيِّيهما   في صفحةِ المشرقِ ضوءُ القمر
من يُنبئُ الإلفينِ أن القضا   مُبدِّلٌ صفوَهما بالكدر ؟

* * *

تسلَّل الصلُّ إلى جسمِها   بوخزةٍ من وَخَزاتِ المنونْ
فلم يكن في عمرها فسحةٌ   فخاطبتْ محبوبَها بالسكونْ
يا ليلةً ضلَّتْ مسراتُها !   وما اهتدتْ إلا العيونُ الشجونْ!
زَفُوا عروسَ الموتِ يا ويلتا !   للموتِ،ماتُغنى فتاها الشئون (١)

* * *

استنطقَ القيثارَ لكنما   قيثارُه المحزونُ لا يُسعدُ
سعى إلى وادى الردى ذاهلاً   لكى يناجى روحَ من يعبُد
أصغى إليه الموتُ في فترةٍ   فجاءه يسألُ ما يقصدُ ؟
فقال : والقيثارُ في شجوه   لى عندكم محبوبةٌ ترقدُ

* * *

يأيها النادى إلى عالمٍ !   داخلُه المفقودُ لا يرجعُ
ليس شفيعٌ للذى جاءنا   بمهجةٍ محزونةٍ يشفعُ
أجابَ عندى لكَ أغنيةٌ   أنشدُها قلبى ، فهل تسمعُ ؟
ثم انبرى يَنفُثُ من حزنِه   ما تنهمى حزناً له الأدمعُ

* * *

رقت له زوجُ الردى فانثنت   تستعطفُ الموتَ على من نزلْ
قالت له : عطفاً على هائمٍ   ليس له من بعدها من أملْ . . .
أرجع إليه من سَبت عقلَه   نوّارةَ الوادى ، ونورَ المقل
قد أرعنَ الوادى برنّاته   ألم يُلن قلبك هذا الغزَلْ ؟

* * *

قال له الموتُ وقد راقهُ   ورق ، والقلبُ أسيرُ النغمْ
أُخرج من الوادى،ولاتلتفت !   إنى معيدٌ خلقها من عَدَمْ
فحطَّمَ القيثارَ من بشرِه   وخفَّ جذلانَ ، سريعَ القدمْ
يسبق من تسرى بأعراقها   الروحُ وتهتزُّ اهتزازَ النسَمْ

* * *

مشى وئيداً مرهفاً سمعَه   لعله يُصغى إلى جرسِها

(١) المراد بالشئون الدموع من قبيل المجاز المرسل

أصغى إلى الأزهار من حوله ... أصغى ، فلم يسمع سوى همسها
الزهرُ والأعشابُ فى يقظةٍ ... كأنها تمشى إلى عرسها
أوَقعُها ألينُ من وقعِها ؟ ... أم حسُّها أرفقُ من حسِّها ؟

* * *

رنا إلى خلفُ على رقبةٍ ... وقد عراه الشكُّ من عودِها
إن لم تعد حيــةً فلأعد ! ... إنَّ الردى أهونُ من فقدِها
فأبصرَ الغـادةَ شـفافةً ... كشعلةٍ تسطعُ من وقدِها
ولمعـةُ الأحلامِ فى عينِها ... وجذوةُ الأشواقِ فى خدِّها

* * *

تقابلا ! لكنَّ صوتَ الردى ... صاحَ ، فخالت كتلةً من ترابْ
فلم يعانقْ غير أحـلامه ... ولم يُشارفْ غيرَ لمعِ السرابْ
وهاتفٍ صاح به : يا فتى ... عُدْ للهوى الباكى ، وعُدْ للعذابْ
واحمل بقايا العود ، لا تمتهلْ ... حرقتَها : ليس لها من إيابْ

* * *

غداً إذا آبَ وآلامُه ... هادئةٌ ، يسكتُ قيثارُه
غذوه بالآلام لا ترأفوا ... ترنُّ بالآلام أوتارُه
لا تقتلوا الأشجانَ فى نفسه ... تفيضُ بالأشجانِ أشعارُه
لولا الذى تسكبُه يا ندى ! ... ما ضحكتْ فى الروضِ أزهارُه

* * *

لنا بآلامِ الورى لذةٌ ... وبالندى يُشرِقُ لونُ الزهرْ
نريدُه يشدو لنا ، فليعدْ ! ... حليفُه الهمُّ وطولُ الضجرْ
نريده يشدو فلا تقطعوا ... من معزفِ الألحانِ هذا الوترْ
قد يطربُ اللهُ وأملاكُه ... لنكبةٍ تُنطِق قلبَ البشرْ

* * *

للأرضِ من قلب الفتى مزقةٌ ... ومزقـةٌ يرفعها للسماءْ
فوزعِ القلبَ على أهله ... وامنحْ من الآلامِ معنى الهناءْ
خُلقتَ هتافاً فلا تبتئسْ ... هل نتاجُ الطيرِ إلا غناءْ ؟
إن تبقَ منه بضعةٌ فلتكنْ ... هديةً مشكورةً للفناءْ ...

دمشق — خليل هنداوي

ظمأ على ظمأ

بقلم فريد عين شوكة

ظمأ على ظمأ وليس لمهجتى ... رىٌّ سواك يَبُلُّ حرَّ ظمائى
يا مهد أحلامى ومُتعة خاطرى ... ومناط آمالى وفيض رجائى
أنت الحياة ولا أزيدك بعدها ... وصفا ، فذلك منتهى إيفائى
كم ذا تشعُّ بخاطرى فأغيب عن ... صحبى ولا أصغى إلى خلصائى
وأظل أسبح فى هواك وألتقى ... بك فى الخيال وأنت عنى نائى
وأراجع العهد الحبيب المشتهَى ... فلعل فى ذكراه بعض عزائى
والصحب من حولى عيون تجتلى ... حالى وتلحظنى على استحياء
حتى إذا جمح الحنين ولج فى ... خلدى وألهب بالأسى أحشائى
مدُّوا إلىَّ عيونهم وتساءلوا ... عما يغول بشاشتى وصفائى
فأحار ثم أجيب غيرَ موفَّق ... مع وفرة الأعذار فى حوبائى
يا غائباً عن ناظرىَّ وليس فى ... قلبى سواه يرفُّ بين دمائى
كم أشتهى برح الضنى لتعودنى ... وأراك رأى العين فى جلسائى
يا مستريح البال من عبث الهوى ... لو كنت تعلم فى نواك شقائى
الفرقة الهوجاء قد رانت على ... كبدى فيا للفــرقة الهوجاء
شتان ما بينى و بينك فى النوى ... كالبعد بين قرارتى وسمائى
ما أبعد الحالين ! أنت منعَّم ... غافى العيون على رضًى وهناء
تسعى لك الدنيا وتحتشد المنى ... للقاك كل صبيحة ومساء
وتعيش فى وادى الهوى متفيئاً ... أندى الظلال وأكرم الأفياء
وأنا، وقاك الله من سَرَف الجوى ... وكفاك ما ألقى من الأعباء !
وأنا — كما تدرى — أهيم بمهمه ... قفر الجوانب موحش الأرجاء
حرَّانُ تلفحنى الهواجر باللظى ... حتى تذيب عزيمتى ومضائى
ظمآن أستسقى الغمام و إنه ... ليضن أن يهمى بقطرة ماء
حيران ما أرتاح لحظ بصيرة ... حتى أعاف إقامتى وثوائى
والوعة المهجور فى وادى النوى ... مما يساوره من البرحاء
يا جنة السلوان ، ناءت عزمتى ... من فادح الذكرى وخار بنائى
فمتى أفىء إلى ذَراك وأستقى ... بَرْد العزاء ونشوة التأساء

فريد عين شوكة

فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

١٨ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

فريدريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوى

الآن تبين لنيتشه أن هاوية سحيقة تفصل بينه وبين شوبنهاور وفاجنر، وقد تقبل مذهب التشاؤم من قبل ليتخذه سلاحاً يصرع به التفاؤل الخادع، وقد بدا له أن نقد الوجود نقداً مصحوباً بالتشاؤم هو من واجب كل نفس خالصة، ولكنه لم يتقبل تلك النتائج السلبية التى استخلصها شوبنهاور من نظراته، ولم يتقبل العدم وسلب الحياة كغاية منشودة فى الوجود. ولكن هذا المذهب العدمى الذى يستسر فيه الخطر، قد لا يكاد يقل مذهب التفاؤل المطلق عنه خطراً، فان جيلنا إذا نمت فيه الروح الراضية القانعة والذات الخانعة، كان هـذا منه علامة الوهن والضعف والانحطاط. تنشأ فى جيـل تعب من الحياة وتصدع من الألم، ويرتاح إلى الراحة المتمثلة فى العدم، وهكذا بدرت لنيتشه مسألة جديدة شغلته طيلة حياته ... ما هو منشأ هذا الانحطاط الحديث؟ ماهى العلامات التى ساعدت على نشره. وما هو داء العدمية؟ وما هو دواؤه؟ ولم يكد يبلغ هذه النقطة حتى وجد أن حكمه على ذينك المعلمين قد تحول من الكل إلى الكل. وإذا برفيقيه اللذين كانا عدته فى مكافحة التفاؤل يغدوان خصمين عنيفين له تثقل عداوتهما عليه وعلى المجتمع. وأدرك فى النهاية أن ثباته على صداقتهما فيه خطر عليه كبير، فاذا لم يبرأ من هـذه الصداقة ويخلص من تأثيرها ومرضها فانه لن يتاح له أن يقف أمام نفسه واعياً همسها فاهماً نجواها لابساً لباسها، ولن يتاح له أن يأتى الناس بانسانه الكامل الذى أوحته اليه تعاليمه الجبارة فيما درس من عبقريات اليونان، فنفض عنه هذه الزخارف الصبيانية التى يتحلى بها أسلوب «فاجنر» ووجد فيه ذلك الدليل الأمين الذى ينفع المفكر الذى يبغى أن يدرس هذه النفس وينحدر إلى أعماقها. فهو اعتنق مذهب «فاجنر» بادئ ذى بدء ليصل إلى هذه النفس. والآن يحاول أن ينجو من حبائل هذا الساحر. «إن ما يشغلنى الآن هو الشقاء... لم يكن «فاجنر» إلا علة من عللى».. على أن الأندية الأدبية قد ارتاعت لهذا الانقلاب وهذه المفاجأة. وأجمعت كلها الحملة على نيتشه العقوق الذى رأت فيه الناكث للعهود. وأخذت الأندية تبعث بتآويل شتى لمعنى هذا الانفصال. وكلها أزمعت القول بأن نيتشه كان فى الحالة الأولى خير من تفهم «فاجنر» ووقف على دقائق مذهبه، وكان تحليله الأول له خير ما أخرجه ناقد محلل عن هذا الفنان. وعللت بأن ما عراه من مرضه العقلى الذى ساقه إلى قطع علاقاته مع المجتمع، هو الذى ساقه إلى التنكر لأصدقائه، ولكن هذا التعليل تعليل فاسد يفسد على الرجل كل فلسفة، وهو الذى كتب نظراته وأعطى مذهبه حراً مفكراً مختاراً. لم يكن مجنوناً ولا مخبولاً يوم طعن «فاجنر» ونال من مذهبه. أما أصدقاء نيتشه فهم يعزون ذلك إلى انخداع نيتشه بهذا الفنان. وهنالك آراء تقاربت تجئ طوراً مع نيتشه وتارة عليه. أما الذين يمقتونه فهم ينقمون منه هـذه الشخصية أو هـذه الأنانية التى قادته إلى نكران الصداقة، زاعمين أن شخصـية نيتشه لا تود أن ترى ظلاً لشخصية غيرها، وشخصية نيتشه فى الحقيقة شخصية ذاتية قوية، لأن الرجل يرى أن الشخصية هى كل شىء، يُضحى فى سبيلها بكل شىء ولا يُضحّى بها فى سبيل أى شىء. فوجد نيتشه أن شخصيته تكاد تفنى فى شخصية «فاجنر» وهو الذى التصق به واتصل لمجرد الوصول إلى نفسه وتفهمها. ولم يجعل منه رسولاً هادياً ولا مثلاً سامياً.. وهكذا أخذت هذه الشخصية الغالبة تضيّق عليه ويضيق بها، وتخنق صوته الحقيقى، فليضحّ بكل شىء فى سبيل ذاته. ولعل نيتشه أدرك أن القوم سيختلفون فى تعليل هذا الانقلاب فكتب هـذه الرسالة التى تنطوى على صفاته ولون تفكيره. «كنا صديقين غريبين..... كنا كمركبين. كلاهما له غايته وله سبيله.... قد نتلاقى ونرفع أعلام اللقاء كما فعلنا... وفى هذه اللحظة ذاتها قد رسا المركبان فى مرفأ واحد، يغمرهما شعاع واحد، كأنهما مقدمان على هدفهما، وكأن هـذا الهدف واحد عندهما، ولكن الضرورة التى لا تُدفع قد تقذف بمركبينا قذفة جديدة نحو بحار مختلفة وأنواء متباينة. وقد نتراءى ولكن لا نتلاقى. كم لوحتنا الشمس والأمواج! نظل غريبين لأن الشريعة الغالبة تريد ذلك..

ولكن صداقتنا القديمة تبقى شيئاً قدسياً . . . وهكذا نريد أن نؤمن بصداقتنا « فى النجوم » حتى فى العهد الذى يجب أن نكون فيه خصمين على الأرض »

أليس فى هذه الكلمة ما يجعل نيتشه ربيئاً شريفاً بازاء خصميه وأنصار خصميه ؟

نيتشه الفيلسوف !

— ١ —

لم تكن نهاية عمر نيتشه إلا معركة متصلة الأسباب ، يشنها صاحبها على الداء الذى خامره ، يصرعه حيناً وحيناً يصرعه . وهو خلال ذلك يطول صراعه ويمتد نزاعه ، يحول الداء بينه وبين اتمام عمله الذى تصدى له ، ولا يشعر بالمجد الذى صار يركض اليه فى أصقاع العالم

هذه الفلسفة الغريبة الشاذة قدشك عند مناقشتها النقاد الذين لم تتسع لها عقولهم ، فقالوا عنها : إنها فلسفة طائشة جاء بها مجنون ، قد تمخض بها الجنون فناً من قبل ! وهؤلاء قد ظلموا الرجل ميتاً كما ظلمته الطبيعة حياً ، على أن شذوذ هذه الفلسفة لا يدعو إلى حسبانها فلسفة مجنونة ، فقد كتبها صاحبها واعياً وغالب بها ألمه قبل أن يستحيل إلى جنون ، ومهما ذهب النقاد فى تعليل جنون نيتشه : أهو جنون اكتسابى أم وراثى ، فان الرجل قد استطاع بما أوتى من عبقرية سامية أن يحدث فى صفحة الحياة أمواجاً عنيفة بالحجر الذى ألقاه . وبهذا لا ينبغى لنا أن نعتقد أن الجنون أثر فى آثاره وهو الذى دل على وعى خارق فى أحدّ نوباته وأعنف آلامه

— ٢ —

أراد نيتشه آلامه ، وعمل على تحملها غير مستثقل ولا مستضعف ، يحولها إلى الحاجة التى يريدها ويستخلص منها ما يلائم حياته . فاذا لم يكن هذا الرجل جديراً بالرأفة والشفقة لأنه لا يريدها ؛ فهو جدير بالاحترام . والبطل يحترم مستلماً ومكفناً

أول نعمة احتسبها للألم أنه أنقذه من مهنة التعليم ودراسة اللغات المندثرة ، إذ أخذ يحس أن هذه المهنة برغم شرفها لا تتلاءم والغرض الذى تتوق إليه روحه . فهو فيلسوف قبل أن يكون عالماً بدراسة اللغات . وأخذ يشعر بأن وفاءه لهذه المهنة دفعه إلى قتل أزهى أيامه وتمطيل دراساته ، فما أثقل اليوم على ظهره هذه الاعباء ! فجاء الداء وأجبره على تحطيم كل حلقة تربطه بالماضى الذى أصبح يعده غريباً عنه وهو منه . جاء فبدل حياته بحياة ثانية تختلف مظاهرها ، وألقاه فى عزلة عميقة لا يقر فيها إلا إلى نفسه لأنها حرمت عليه الانكباب على المطالعة والانصراف إلى الدرس . فهو اليوم وحيد مع نفسه ، أمام نفسه . يسمع نداء من كان فى أذنه وقر عنها . فرحت اليوم نفسه بعودته إليها ، بأوبته إلى العزلة والراحة الخالدة : هذه النفس التى كادت تقتلها الحادثات وتطغى عليها جبلة المجتمع قد نفضت عنها الأكفان ورفعت صوتها الرنان « ما تذوق يوماً من السعادة ما تذوقه خلال أيام دائه لأنه عاد إلى نفسه . وهذه العودة إليها كانت شفاءه . وهذا الشفاء يتلوه شفاؤه المادى »

على أن الداء لم يزد نيتشه إلا احترازاً فى النظر إلى مسائل الكون والحياة ، وهو عاكف على التطلع إلى هذه المبادىء الفلسفية ، ولكن يراها بمجموعها جملة مبادىء هى حقائق بعينها ؛ اطلع اليها كأنها ابنة طبع مبدع وشخصية مبدعة ، ومما ينبغى أن ينظر اليه بعين الاعتبار مسألة تأثير الصحة والسقم فى العقل البشرى ، فاذا تألم جسدنا — وهو العقل الأكبر — فالعقل الصغير لابد متأثر بما نزل بالعقل الكبير ، وإذ ذاك يسأل السائل : هل هذا المذهب علامة من علامات صحة صاحبه أو انحطاطه ؟ وقد أيقن نيتشه بأن السقم زاده احتراساً وانتباهاً من سلطة الأخيلة والأوهام التى تتولد عادة عند من راقت لهم صفحة الحياة وبهجة الدنيا « بلى ! اننى أدرك أن الألم لا يحمل الانسان إلى المقام الأحسن ، ولكن الألم ينحدر بنا إلى أعماقنا ! »

والانسان الذى يريد أن يناضل ما ينتابه من قلق جسمانى متسيطر ينبغى له أن يفرض على نفسه قوة يقهر بها نفسه ، تخرج منها ارادته المتمرنة ظافرة كما يصنع الهندى المستسلم لألوان من العذاب ، أو أن يستسلم لزهد مطلق واعتزال كامل وهجر للارادة ، والانسان الذى يتمكن من هذا الامتحان بقضيه من غير ضعف ، يتعلم منه أن يتأمل مسائل الحياة بوضوح وجلاء ، لا يخدعه عن حقيقتها شىء ؛ فهو يأبى أن تصرفه عن حقيقة الوجود هذه التشابيه والخزعبلات المغرية ، وكأن دافعاً للانتقام والثأر من الحياة يتحرك فى طوايا نفسه ، يريد أن يستبدل بها آلاماً تتولد له حين

يقابلها وجها لوجه يميط عن وجهها النقاب . وينزع كل زينة خادعة تتبرج بها لاغواء الناس ؛ وهو إذا أحب الحياة بعد ذلك فانه يحبها كالعاشق الغيور المتحرز ، حبك لامرأة خدعتك وأصبحت مثار الشك عندك

يلاحظ نيتشه أن الألم هو الذى جعله متفائلاً ، والسقم قد علمه ما يبلغ تأثير الانحطاط الجسمانى فى عقل المفكر ، ولاحظ به كيف يسمى الألم إلى قهر عزة العقل الفلسفى ورد هذه العزة ضعفا وذلة وحزناً وكآبة . وأدرك ما هى المواضيع والزوايا السماوية التى يلجأ اليها عقل المرضى والمنحطين سعياً وراء ما يخفف عنهم من فاقتهم وكآبتهم . وأدرك بعد هذا كله أن كل فلسفة تضع السلم فوق الحرب ، وكل فضيلة تعطى للسعادة تحديداً سلبياً ، وكل علم من علوم ما وراء الطبيعة يرى أن فى مراحل الاعتدال والراحة التامة والأمل الدينى فى عالم خير من هذا العالم ، وفى برزخ غير هذا البرزخ ، يرى فى هذا كله حداً للرفعة والسمو ؛ إن هذه الفلسفة مهما كانت مظاهرها فهى تحمل طابع الفساد والانحطاط ؛ وآمن بأنه فهم أن كل هذه المذاهب الداعية إلى التشاؤم والركون المطلق تدل على أن أصحابها الواضعيها كانوا فى حالة مرض عضوى ؛ ولما أراد هذا المريض أن يشفى ركن إلى التفاؤل ؛ وقد نفعته أيام البلاء بالوقوف على أسباب التشاؤم ، فانصب على الداء بكل ما يحوى جسده ونفسه من عزم ، يقاومه فى معركة لاهوادة فيها ولا رحمة ، وبقوة روحه قد انتصر فى عالمى جسده ونفسه ؛ عاد متفائلاً ، وعادت اليه العافية ، « ألا إننى اكتشفتُ حياة جديدة ؛ اكتشفتُ نفسى . إننى قد جرعتُ الأشياء الكبيرة كما رشفت الصغيرة منها ، وجعلتُ من رغبتى فى الشفاء والحياة كل فلسفتى ، حذار جميعاً ؛ إن الأعوام التى انحطت فيها حيويتى ، هى الأعوام التى طلقتُ فيها تشاؤمى ، وغريزة الوقاية هى التى صرفت عنى فلسفة اليأس والفاقة »

(يتبع) خليل هنداوى

القصص

صور من هوميروس

٣ ـ حروب طروادة

إلى أسبارطه !

للأستاذ دريني خشبة

ـ « سمعت يا أبى قصة أختك المعذبة « هسيونيه » إذ أنا أرعى الشاء والبهم ، فكان قلبي يتفطر أسى ، كيف يسكت شعب عظيم كشعب طروادة على إهانة تصيبه فى الصميم من شرفه ، وعار ليس أيسر من دفعه ، لكنه يغضى عليه ، وينام عنه ، كأن العزة القومية عند أهل هذا البلد ليست إلا أسطورة قديمة ، أو حلماً لا يدور لهم بخلد ! ؟ »

ـ « حسبك يا باريس ! حسبك يابنى ! إنها محنة كتبت على طروادة ، ، صنعها جدك بيديه ! »

ـ « جدى ؟ »

ـ « أجل ! جدك . . . أبى . . . أبى لا يوميدون ! هو الذى نكث بعهده لبطل الأبطال هرقل . . . الرجل العظيم الذى أنقذ هسيونيه من براثن هذا الوحش البحرى الهائل . . . الوحش الذى فتك بعذارى طروادة . . . لقد أعلن أبى أن من يقتل هذا التنين فانه يتزوج هسيونيه . ولما قتله هرقل العظيم ...

ـ « رفض والدك أن يزوجها منه ! »

ـ « هو ذاك ! »

ـ « لم أسمع بهذا من قبل . . . ولكن كيف سمحتم لهرقل وملئه أن يستبيحوا طروادة ويذهبوا ببعض الأعزاء من أفراد البيت الملكى !

ـ « كنت طفلاً . . . وقد كنت بعض هذا السبى . . . ثم من كان يستطيع دفع هرقل ، أقوى أبناء زيوس ، وصاحب المجازفات الخرافية ! من كان يستطيع حماية طروادة منه ، بعد أن نكث الملك بوعده ؟

أنت كنت بعض السبى ؟ انت يا أبى ؟

ـ « أجل يا باريس ! وقضيت فى أيدى أعدائنا الشرفاء أجمل حقبة من شبابى ! لله كم كانوا كرماء حقاً ؟ . . . »

ـ « وكيف عدت إلى طروادة إذن ؟ »

ـ « مات أبى بعد حياة مفعمة بالمتاعب ، ولم يكن له ولى عهد غيرى ، فتوجه الطرواديون إلى الأعداء يطلبوننى ملكا لهم ، بأى ثمن . . . ولكن أعداءنا كانوا أكرم من أن يسترقوا الملوك أو يبيعوا الأمراء . . . لقد أعادونى معززاً مكرماً إلى وطنى ، بعد إذ أخمد خصومتهم موت هرقل . . .

ـ « ولم لم تعد عمتى هسيونيه يا أبتاه ؟ »

ـ « لقد تزوجها تيلامون يا بنى ، وأحسبها الآن أما »

ـ « ذلك أدعى لعودتها . . . إنها لا شك تتعذب فى دار غربتها . . . مسكينة ! ! إن حدائق الخلد لا تجدى نفعاً إذا كانت سجناً لأحدنا !

ـ « هذا حق يا بنى . . . ومثله القفص من ذهب يحبس فيه البلبل المحزون !

ـ « أنا حزين يا أبتاه . . . لا بد أن تعود عمتى . . . أفتأذن لى فى الابحار إلى هيلاس (١) ؟ إذا أذنت ، فلن أعود إلا بها

***

الآلهة لا تكذب !

هكذا قالت ڤينوس ! وإذا كانت الآلهة لا تكذب ، فلن يكذب أبوللو ! لابد أن تصدق النبوءة القديمة ؛ لابد أن يبحر باريس إلى هيلاس ليجر الخراب على طروادة ، وليخيم الموت فى داراتها جميعاً . . .

(١) اسم بلاد اليونان قديما

الآلهة لا تـكذب !

لقد أبحر إلى أسـپارطة في يوم عاصف ؛ أسود من جبين الموت ! وأبرد من بطون القبور ! ولقد كان أسـطوله اللجب يرقص على نواصي الموج ، كما يرقص الطائر المذبوح في قبضـة الفناء . . .

هيلين [1]

ثمرة الحب الأولمبي الساحر ... ابنة زيوس ، الغزل ، زير النساء ؛ من ليدا الفاتنة ، التي حوّلها حبيبها كبير الآلهة ، وسيد أرباب الأولمب ؛ إلى بجعـة بيضاء تتهادى في مرايا المستنقعات والغدران ، ليسهل عليـه لقاؤها دون عزول . . . أو رقيب ! ولقد ولدت له هذه الطفلة التي كانت كقطرة المداد يمهر بها إعلان الحرب !

شبت هيلين وشبت في أثرها شياطين الفتنة ؛ وكبرت ، وكثرت تحت قدميها مصارع المشاق !

لقد كان جمالها أسـطورةً مصورةً في السحب ، موشاةً بذهب الأصيل ! كانت نظراتها تغتـذى بأرواح المحبين في غير شرَه ، وترتوى بماء حياتهم في غير نهم . . . وإن كان محبوها يحصون بالآلاف . . . !

وهي لم تعمد يوماً إلى قتل هذه الأرواح المظلومة ؛ ولم يكن ذنبها كذلك أن تنظر فتصرع ، أو تنعس فتُصمى ... ولـكن القتل كان يذهب بأرواح عاشقيها عفواً كلما نظرت هنا أو هنا ... وذاك هو القتل البرئ ...!

وكان لها فم شَتيتٌ حلو ، أودعت فيـه السماء أسرارها ، وصبغته عرائس [2] الفنون بحمرة القبل ؛ فهو دائماً يبتسم ، وكل ابتسامة منه تُحيي وتُميت !

وخدّاها الأسيلان كذلك ! لقـد كانت لهما نعومة ولمة ، و « نونَةٌ » [3] خلاّبة ، هي ملتقى الفتنة بين الخد والفم والعين والأنف !!

ثم عنقها الطويل البلّوري الشّفاف ، وجيدها الممتلئ الخصب ! وجسدها الرخص المرمرى ! وساقاها الملتفتان ، يختلط في بشرتهما بياض الندف بحمرة الورد !

هذه هي هيلين !

فاذا فتَرْتَ العينين ؛ وأرخَيْتَ الأهـداب الـكحيلة السوداء ، ذاتَ الوطف ؛ وأرسلت نظراتك المذهولة ترف بالخد والجيد ، والفم النضيد ، فترتد إلى فؤادك بأحمال الحب ، وأثقال الهوى ... رأيت التمثال المعبود الذي خلب ألباب أمراء هيلاس ، وأجّج قلوبهم بالفتنة ، وقرّح أجفانهم بالسهاد !

* * *

لم تنشأ هيلين مع ذاك في حجور الآلهة ، إذ تزوجت أمها ، بعد أن هجرها زيوس ، من تنداريوس ، أحد أمراء هيلاس ، فترعرعت الطفلة في مهاد النعمة ، وسعدت بالهناءة والعيش المخفرج حتى كانت هيلين التي رأيت ! ؟

وقد تقدم إلى خطبتها كثير من سادة الأغريق ونبلائهم ، ولـكن أحداً منهم لم تقبله هيلين بعلاً لها ... لا لعيب فيهم ... ولـكن القلب !!

أجل ، لم يكن يتفتح قلب هيلين الأولمبية الرائعة ، إلا لـكل جميل رائع ! ولما لم يكن في كل من تقدموا لخطبتها من هو سليل الآلهة مثلها ، فقد رفضتهم جميعاً ، وعلة ذاك هذا الدم المتـكبر الذي يتدفق في عروقها ، وذلك الجمال المعبود الذي كان أكثر من أن يحصر في امرأة واحدة !!

وجرت الألسن في هيلين ، وجمال هيلين ، وعشاق هيلين . . والساخطين على هيلين ممن جرحت كبرياءهم لرفضها إياهم ، ولقى زوج أمها من جراء ذلك هولاً شديداً ورهقاً ...

تحدثوا أن عشاق هيلين ، ومنهم أبطال هيلاس وشجعانها وذوو الصولة والجبروت فيها ، كانوا يضربون معسكراتهم حول بيت زوج أمها ، يطمع كل منهم أن يفوز هو بيد هذه الغادة ذات المفاتن ، التي أذلت الأعناق العزيزة ، ورغمت بها الأنوف الأغريقية الشماء !

وخشى تنـداريوس أن تشب الحرب بينهم ، لو أن هيلين قبلت أحدهم زوجاً لهـا دون الآخرين . . . وأسقط في يده حين تقدم منالايوس ، ملك أسپارطة ، وسليل الآلهة أيضاً ، إلى هيلين يطلب يدها ... فلما أسرّت الفتاة إلى زوج أمها أنها ترضى ملك

---

(١) ايلين أو هيلانه أخت كليتمنسترا من أشهر الأشخاص الـكلاسيكية

(٢) Muses

(٣) للخد البارز المستدير خط مما يلي الأنف يزيده جمالا وقد أطلق عليه بعض الـكتاب (نونة) ولا ندرى هل توافق الرسالة على هذه التسمية ؟

أسبارطة بعلاً لها ، تضاعف فزعه ، وازدادت خشيته ، وأيقن أنه لو أنفذ من أمر ذلك الزواج شيئاً ، فان أمراء هيلاس بأسرهم يصبحون له أعداء ألدّاء ، وهو لا حول له بعداوة أحدهم بمفرده ولا طول !!

ولجأ تنداريوس إلى الحيلة ...

لقد أقام حفلاً شائقاً دعا إليه كل من تقدموا لطلب يد هيلين ، وبالغ في إكرامهم والاحتفاء بهم ، ثم خطبهم فتحدث عن فتاته وما كان من أمر خطبتهم لها وعدم التوفيق في إنجاز شيء مما أقدموا له واختلفوا فيه ... : « أفان بدا لهيلين يا سادة أن تختار أحدكم ليكون لها زوجاً من دونكم انقلبتم على أعقابكم وثرتم بمن يقع عليه اختيار الفتاة فقتلتموه أو فضحتموه في عرضه ، وجعلتم اسم هـــذا البيت الكريم مضغة في أفواه الهيلانيين وجيرانهم ؟؟ إنما نريد أن نتقي هذا الشر فلا يستطير ، ونتدارك الأمر ؛ فلا ندعه همجية بيننا ؛ ولن أكلفكم في سبيل ذلك شططاً ... يمين ، يا سادة ، صادقة ، تقسمونها فتكون عهد الوفاء بيننا ، أن ترتضوا جميعاً ما ترتضيه هيلين ، وأن تكونوا يداً على من يحنث ولو كان أعزكم جانباً وأكثركم قوة ... بل لنتفق جميعاً على أمر يكون أعم مما أشرت إليه ، أن نكون يداً على من تحدثه نفسه بالأضرار بهيلين أو بسَبْيِها ؛ فقد تحدث إليّ من عنده علم أن بعضكم ينتوي هـــذه النية السوداء ... ينتوي أن يَسرق هيلين إذا لم يكن من حظه أن يقع اختيارها عليه ليكون بعلاً لها ، وأنتم السادة النُّجب من عِلْية الأغريق وجيرة الأولمب ، أفترضون أن يحدث هذا الحدث في أمر كلكم شاركتم فيه من قبل ؟ ... »

ويجيب المدعوون في صوت واحد : « حاشا حاشا ! لنقسم جميعاً ... » وأشرقت هيلين على الملأ ، وكادوا يفتتنون بعد إذ أقسموا ، لولا أن أرسلت الفتاة صوتها الموسيقي الرنان ... تختار ملك أسبارطة ، الملك منالايوس ، ليكون زوجها الوفي الأمين !!

وطأطأوا رؤوسهم ... وانصرف أحدهم في إثر الآخر ...

***

رسا أسطول باريس في مرفأ ليسديمونيا(١) الأمين ، وخرج الأسبارطيون وعلى رأسهم ملكهم ومليكتهم للقاء ابن بريام المظيم ، حيث شاع أنه ينزل ضيفاً كريماً على صاحبي العرش ، فيلبث أياماً في ضيافتهما ، ثم يعود أدراجه الى طروادة مصطحباً عمته الأيم هسيونيه !

وتقدم الملك والملكة فسلما على الضيف الشاب ، وتحرك الموكب الكبير في طريق حُفَّت بالشعب الطروب ، وفُرشت بأوراق الورد ، وتأرجت في جنباتها أنواع الرياحين . وكانت فرق من الموسيقيين تعزف هنا وهناك ، فتراقص ألحانها العذبة حبات القلوب . وكم كان جميلاً رائعاً إنشاد الجنود وقد وقفوا صفوفاً صفوفاً ، كلما مر الموكب الملكي بفرقة منهم دوى هتافها حتى يبلغ عنان السماء . . . فاذا فرغوا وصلت هتافهم فرقة تالية . . . وهكذا . . .

وكان سرب من أجمل قيان اليونان وحِسانها يحيط بالملكة الجميلة ، وقد قصّرن ثيابهن وأرسلن شعورهن ، فبدون فتنة الركب ، وكن سحر الموكب ، ولَفَتْن من باريس بصره وسمعه وفؤاده !

وكان الفتى يخالسهن نظرات مشغوفة ، وكن بدورهن يبسمن له ويتبرّجْن ، حتى التقت عيناه بعيني الملكة . . . فنسي نفسه ! !

لقد خُيل له أن قلبه انخلع من مكانه الذي بين جنبيه ، ليتأرجح في مقلتيه ! أين رأى هذه الملكة من قبل يا ترى ؟ إنه لم يذهب الى الأولمب قط ، وهل لبشرى أن تطأ قدماه أرض الأولمب فيرى مثل هذا الجمال الساحر ، والحسن الفتان ؟

الحق أن هيلين تعمدت أن تشك قلب باريس في قوة وعنف ، حين أدركت رُسُل العيون تنتقل بسرعة بينه وبين قيانها وحسانها ! فلما التقت عيناها بعينيه غمزت قلبه الضعيف الغض بسهم مُراش من عينيها الساجيتين ، انطلق الى جوانحه في بروق من بسماتها . . . ورعود !

لقد زلزل قلبه . . .

وأحس كأن قوى خفية تجذب روحه لتمرغها تحت قدمي هيلين ! وطفق يفكر ويفكر أين رآها من قبل . . . ولكن بلا جدوى . . .

ثم بدت له ڤينوس بحيث لا يراها أحد غيره . . . وقالت له : « هِيَ . . . هي . . . كن شجاعاً ! » . . . ثم غابت ربة الحسن . . .

فذكر ماضيه القريب ، وذكر ما وعدته به ڤينوس ، وذكر

(١) عاصمة أسبارطة قديماً وقد يطلق هذا الاسم على أسبارطة نفسها

أن هيلين إن هي إلا صورة أرضية . . . سماوية . . . من ربة الحب ، وأنها مخلوقة تخلقها ، عذوبة روح ، ورقة نفس ، ودفء دم ، وسحرَ عيون . . .

فصمَّم على أن تكون له ! !

***

ولبث باريس في ضيافة الملك أياماً كانت تتصرم كأطياف الأحلام ! ثم حدث حادث جلل في أطراف المملكة استلزم وجود الملك نفسه ليرى رأيه فيه ، فلما كان يوم السفر ودع منالايوس زوجته الحسناء ، وأوصاها بإكرام ضيفه العظيم ، باريس ، « ابن صديق ملك طروادة ! » . فطمأنته هيلين ، وخرجت تودعه ، حتى إذا كانت عند أسوار ليسديمونيا ، حيته تحية فاترة . . . وعادت لترعى عصفورها الغِرِّيد . . . ! !

أقبلت هيلين على ضيفها غير هيابة ، وأقبل هو عليها في غير وجل . أقبلت عليه تؤانسه كما أوصاها زوجها ! وأقبل هو عليها يغازلها ، ويبحث فيها عن أجمل امرأة في العالم كما وعدته ڤينوس !

« هيَ هيَ . . . كن شجاعا ! » . وهكذا كانت تتردد هذه العبارة المقتضبة في أذني باريس كلما ذكر الوفاء وشكران الجميل ؛ وكلما هم أن يبتعد بقلبه عن زوجة الملك الكريم المضياف الذي احتفى به وأكرم مثواه . . .

« هيَ هيَ . . . كن شجاعاً ! » إذن فليكن باريس شجاعا كما أمرته ڤينوس ! ليقترب من هيلين في هذه الخلوات الحلوة التي تمن عليه بها ، فتستطيل كل مرة إلى ساعات وساعات ؟

ليقترب منها ، ولتصب هي سلسبيلاً من الموسيقى في أذنيه المرهفتين لكل كلمة من كلماتها ... وليرشف هو هذه الخمر التي تتدفق من عينيها وأهدابها ... ليرشفْ من هذه الخمر حتى تثمل روحه ، ويسكر قلبه ، وتزيغ عيناه !

ليقتربْ ! ليقتربْ كثيراً ! ليمس جسده المشتعل ، جسدها المعطّر الفينان ! إنها لا ترفض أن يكون ذراعه فوق كاهلها ! بل هي أيضا تنثر ذراعها فوق كاهله ؟ هاهما يتخاصران ! الخبيث يضغط ثديها الأيسر بشدة ! هل يبحث عما يكنه قلبها ؟ أم يفتش عن شيء مفقود في نفسها ؟ إن عينيه ما يتحولان عن عينيها ! إنه يحملق فيهما بشراهة !

قُبلة . . .

هي القبلة الأولى من غير شك ! هي الاعتراف الصريح بنضوج الحب !

وقبلة ثانية . . .

وهي القبلة المؤكدة لأختها الأولى ! هي عدم المبالاة بما عساه أن يكون ! هي أول شرط في عقد هذا الغرام الأثيم . . . ! هي الاعتداء الصارخ على عرض منالايوس . . . منالايوس العظيم ملك أسبارطة . . . وسليل الآلهة ! !

***

ـ « ألا يسرك يا هيلين أن نعيش سوياً أبد الدهر ! . . . »

ـ « ألا يسرني ! ما السرور إذن يا حبيبي باريس ؟ »

ـ « إذن فلنرحل في ظلام الفجر ! »

ـ « إلى أين ؟ »

ـ « إلى طروادة ؟ »

***

وأقلع الأسطول في غبشة البكور يحمل . . . هيلين ! !

وعفا الحب عن عمة باريس ! عفا الحب عن الأيم هسيونيه !

(لها بقيــة) دريني خشبة

من أساطير الإغريق

المحسن ...

[مهداة إلى الأستاذ دريني خشبة]

للأستاذ محمد روحي فيصل

منذ آلاف السنين ، بينما الناس في اللهو والضلال كانوا منغمسين ، سُمع من جانب السماء صوتٌ هائل كأنه الرعد القاصف قد اهتزت له أطباق الفضاء ومادت منه جوانب الأرض ؛ فاذا عيازيب النور تجف على أثر ذلك ، والظلام يغمر الدنيا كلها ؛ كأنما الشمس الحبيبة — أمُّ الحياة — قد غاضت أشعتها الزاهية وانطفأ معناها الحي ، وإذا بالأنهار والينابيع والغدران تجمد وتكف عن السعي ، وقد استحال خريرها المؤنس الجميل إلى صمت كئيب موحش كصمت القبور ، وإذا بريح صرصر عاتية تهب مجنونة على الأرض فتقتلع الأشجار بأصولها وفروعها وتهيج الغبار ، وتختطف المنازل من أماكنها ، وإذا بالضوارى المروّعة تنفر من مكامنها هائجة غاضبة تزأر ..!!

وريع الناس وجبنوا فما يدرون ماذا دهاهم من الخطوب ، ثم أقبل بعضهم إلى بعض يتساءلون : أي ذنب اقترفناه ، وأية فريضة لم نقم بها حتى صب علينا الآله العظيم غضبه وويله ؟

وكانت قافلة الحياة يومئذ من الشر والضلال في منزلة لم يعرفها التاريخ في أدنى عهوده ، تسير على غير هدى وإلى غير غاية في معمه من الفساد وطريق من الرذيلة ، وكان رجال الفن أدق الناس شعوراً وأرهفهم إحساساً . فقال الشاعر : « إني نظمت في مديح الآله قصيدة رائعة منتزعة من النفس ؛ لا صادرة عن اللسان ، ما أحسب أن أحداً من الشعراء سبقني إلى مثلها على كثرة المادحين ، أودعت فيه قلبي ودمي ، وحرقت لها مخي وكبدي ، ثم صغتها في لفظ عذب جميل ! فأنا أسبح بحمده ما نطقت ، وأنشر روحه أنى حللت ، ولقد أجثو في محرابه خاشعاً متصدعاً ، أتلو آي التمجيد والاجلال ، فكيف يغضب مني وينقم عليّ ؟ »

وقال الموسيقى : « وأنا أيضاً لحنت أنشودة قوية تحكي هديل الحمام وتغريد العنادل ، وزجّعتها ترجيع عاشق محزون ، ثم قدمتها هدية حقيرة للآله الجبار ، فلماذا غضب .؟ »

وقال النحات : « أما أنا فقد صنعت له تمثالاً عظيماً يجمع إلى معاني الجبروت تهاويل الجمال ، وإلى قوة البنية رشاقة القسمات ترى أيغضب الآله مني وأنا مجسّده ؟ (١) »

وانتفض المصور وقال : « أأنا مغضب الآله إذن ؟ لقد أخذت زرقة السماء وخضرة الأوراق واحمرار الشفق ، ونزعت من الورود ألوانها ، والتمست من ذلك كله صورة لآلهنا الكبير فما زلت أعمل فيها وأنسقها حتى برزت حية ناطقة في إطار واضح مشرق ... »

ويضطرب الناس ، وتطغى عليهم حيرة جاهلة عمياء ؛ تتبينها في الوجوه الواجمة ، والنظرات الحائرة ، والخطى الثقيلة ! ويتداولون الأمر همساً ، ويلتمسون الخلاص من الخطب ، ويجمعون رأيهم على الذهاب إلى وادي عبقر ، موطن الوحي والالهام . فراحوا جميعاً إلى حيث يلاقون إلههم الغاضب ، يتقدمهم الشاعر ساهمَ الوجه ، تائه البصر ، وحمل المصور لوحته وريشته العذراء ، وتأبط الموسيقى قيثارته المشدودة الأوتار ، وجمع النحات أزميله ومنقاشه وحجره ...

وفي لمحة خاطفة ، طلعت الشمس ، وغردت الطيور ، واستأنفت الأنهار سعيها ، ثم لامست الوادي غيمة كبيرة بيضاء هبط منها الآله الجبار !!

وخر الناس من الخشية سُجَّداً يلتمسون البركة والضراعة والغفران ! وكما يسمع الحالم في النوم سمعوا صوت إلههم يقول :

لقد بعثت فيكم رسولاً كريماً ينشر الرحمة ويعلمكم العطف والتقدير فتجاهلتموه !

بعثته والأخلاص ملء برديه وفيض إهابه فلم تقدروه !

هو خادمكم الأمين يبذل عرق جبينه لاصلاح مجتمعكم الواهي وينفق المال الذي بين يديه دون أجر غير أجري ؛ لأنه يعطيكم أكثر مما يأخذ منكم ، ويبني المستشفيات والملاجئ ، ويقيم دوراً للعلم فنسيتموه أو تناسيتموه !

وحق عظمتي ، لولا رحمتي التي وسعت كل شيء لجعلت الأرض فوقكم قاعاً صفصفاً ...

عند ذلك صاح الساجدون كلهم :

ما اسم هذا الرسول الكريم ؟

فأجاب الآله الجبار : المحسن

حمص — محمد روحي فيصل

(١) التجسيد : تمثيل الرب بطبيعته وهيئته في زي انسان ، والتعبير مقتبس من اليونانية Anthropamarphisme

الهــــدية

للأستاذ بشير الشريقي

حدثني صديق لى وهو فى مقتبل عمره ، وأول عهده بالوظيفة ، قال :

فى صباح أحد الأيام ، وأنا متهيىء للخروج إلى عملى ، إذا بباب غرفتى يطرق ، وإذا بالطارق فتى جميل المحيا ، يقظ الملامح ، يحمل على يديه سفطاً مستطيل الشكل ، كبير الحجم ، فما وقع نظرى على الفتى والسفط بين يديه حتى تولانى الانقباض ، لأننى عرفته من هو ؟ وأين يشتغل

تمتم الفتى : لقد عادعمى الشيخ من دمشق مساء أمس وهو يهديك تحياته ، وقد أرسلنى بهذا السفط هديته من دمشق اليك

ولكن عقلى كان قد اهتدى إلى أنى موظف ، وأن لصاحب هذه الهدية مصالح كثيرة عندى يهمه قضاؤها

فبادرت الفتى بتؤدة : ما هذا ؟ ليس من الضرورى . . . . له منى الشكر . . . أعد السفط اليه . . . ليس من الضرورى . . . ولكنه قاطعنى بأدب : لقد بعث به الشيخ اليك .. وهو هديته من دمشق . . . وسيغضب علىّ إن رجعت به

قلت بلهجة الآمر : أرجعه . . . سوف لا آخذه

عاد الفتى بالسفط وهو لا يصدق أنى رفضت قبوله ؛ وعدت فأغلقت علىّ باب غرفتى أفكر فى الذى صنعت : لولا أنه صاحب حاجة عندى لما خطرت هذه الهدية له على بال ولما فكر فىّ لحظة ، إذ لا صداقة بينى وبينه ، وأنا لا أراه إلا فى الدائرة حين يريدنى فى أمر رسمى ، أو فى الطريق فنتبادل التحية من بعيد ، وفوق ذلك فهو من التجار الذين يحاسبون على السحتوت والقطمير ، والذين يعطون القرش ليستردوه قرشين ؛ وهكذا كان الظاهر محاطاً كله بالريب فلم يدخل فى نفسى أن هدية الشيخ منزهة عن الغرض

وبينا أنا على هذه الحال ، إذ أرى الشيخ من نافذة غرفتى قادماً إلىّ ، فأسرعت وفتحت له الباب :

أهلاً وسهلاً بحضرة الشيخ ، الحمــد لله على سلامتك ، تفضل . . . جلس فاذا به قد تجاوز الخامسة والخمسين ، ولكنه لا يزال محتفظاً بقوته ونشاطه ، قد تدلت من ذقنه لحية كبيرة بيضاء ، يرتدى سروالاً وجبة ، نظيف البزة ، وسيم الطلعة ، حسن القيام على نفسه

— ماذا فعلت يا ابن أخى ، لقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية

قلت : ويرد الصدقة

قال : ويرد الصدقة ؟ ! ولكن قسما بهذه اللحية – وقبض على لحيته – إن الهدية قد صنعت على اسمك وحملتها من دمشق اليك

قلت : أشكرك . . . أشكرك . . .

قال : ولا أزيدك علماً أنه يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم ما معناه : « من أهدى اليه شىء ورده فكأنما ردّه على الله »

قلت : صدق رسول الله الكريم .. أنا لا أشك فى حسن نية الشيخ ، ولكن القانون يا عم . . . هذا القانون المكلفون نحن قبل غيرنا بحفظه واحترامه ينهانا عن أخذ مثل هذه الهدية ، فهى فى عرفه رشوة والعياذ بالله ، يستحق معطيها وآخذها شديد العقاب — إليك المواد — ٦٧ و ٦٨ و ٦٩ و ٧٦ من قانون العقوبات العثمانى — وقرأت له نصوصها — إنه لأمر خطير

وقلت له :

ولكى تثق بواسع علم المشرّع الذى سن لنا قانون العقوبات وبعد نظره أروى لك هذا الحديث الشريف المثبت فى الصحيحين عن أبى حميد الساعدى قال : استعمل النبى صلى الله عليه وسلم رجلاً من الأزد يقال له ابن النبيه على الصدقة فلما قدم قال : هذا لكم وهذا أهدى إلىّ فقال النبى : ما بال الرجل نستعمله على العمل مما ولانا الله فيقول هـذا لكم وهذا أهدى إلىّ فهل قعد فى بيت أبيه أو بيت أمه فينظر أيهدى إليه أم لا ! »

وهنا صمت الشيخ ولكن لسان حاله كان يقول :

— لقد عرفت كثيرين غيرك من الموظفين كباراً وصغاراً فلم يحدثنى واحد منهم عن مواد قانون العقوبات ولا عن حراسة القانون ، لم يذكر لى واحد منهم حديث النبى صلى الله عليه وسلم مع عامله على الصدقة بل كان أمرى معهم ولا يزال على العكس تماما فأنا مكلف عند كل خطوة وعند كل حاجة أن أقدم الهدايا وألبى الطلبات . . . .

* * *

وإلى هنا انتهى حديث الصديق فوجدته جديراً بالتدوين ؛ فدونته فى الحال ؛ وها هو كما سمعته بلا زيادة ولا نقصان ؟!

(شرق الأردن) **بشير الشريقى**

البريد الأدبي

جورج رسل عميد الشعر الارلندي

من أنباء ارلندة أن شاعرها الكبير جورج وليم رسل قد توفى فى الثامنة والستين من عمره . وكان رسل عميد الشعراء الأرلنديين منذ أوائل هذا القرن ، كما كان السير وليم وطسون عميد الشعراء الانكليز ، وقد توفى كلاهما هذا الصيف ، ففقد الأدب الانكليزي بذلك آخر زعماء المدرسة الشعرية القديمة ؛ وكان مولد جورج رسل فى لورجان سنة ١٨٦٧ ؛ وتلقى تربيته فى دبلن ودرس التصوير ومارسه ؛ ثم غدا زعيما لحلقة أدبية كانت تنشر صحيفة عنوانها « الثيوسوفى الأرلندى » ، وفيها نشر أشعاره الأولى التى جمعت بعد ذلك فى ديوان سمى « أغنية وطنية متناثرة » (سنة ١٨٩٤) وفى مجلد آخر سمى « أنفاس الثرى » (سنة ١٨٩٧) . وكان رسل إلى جانب مواطنه الشاعر ييتس زعيما للأحياء الأدبى فى أرلنده ؛ ودرس رسل التصوف الشرقى ، وتوثقت أواصره بزميله ييتس ؛ وكان يعمل مدى أعوام طويلة كاتباً فى شركة للأقمشة ، فقدمه صديقه ييتس إلى الزعيم والمثرى الأرلندى الكبير السير هوراس بلانكيت وأوصاه به خيراً ، فألحقه بالشركة الزراعية الكبيرة التى ألفها لمعاونة المزارعين ؛ وتولى رسل الطواف على دراجة فى القرى الأرلندية يستفهم من السكان عن أحوالهم ورغباتهم . وفى سنة ١٩٠٥ اختاره السير بلانكيت لتحرير صحيفة الجمعية ، وهى صحيفة سياسية تعاونية ، فاستمر فى تحريرها حتى سنة ١٩٢٣ . وفى ذلك العام أصدر رسل لنفسه صحيفة جديدة عنوانها « السياسى الأرلندى » فاستمرت حتى سنة ١٩٣٠ . وأصدر خلال هذه الفترة عدة مؤلفات شعرية ونثرية منها كتاب « لب المعرفة » (سنة ١٩٠٣) ورواية مسرحية عنوانها « ديدرى » (١٩٠٧) وكتاب « مثل المجتمع الأرلندى الريفى » (١٩١١) وقصيدة كبيرة عن ثورة سنة ١٩١٦ عنوانها « التحية » ، وديوان عنوانه « السحر وقصائد أخرى » وغير ذلك مما يضيق بذكره المقام

وقد كان رسل وطنياً كبيراً ، يشتغل بالسياسة إلى جانب الأدب ، ويسخر الأدب لخدمة وطنه ، وتأييد مثله العليا فى الحرية والاستقلال ، وكان أيضاً انسـانياً عظيما يبذل وسعه لمعاونة البائس وغوثه ، وانتشال الطبقات الدنيا من وهدتها

فكتور هوجو الصحفي

كان فكتور هوجو شاعر فرنسا الأشهر صحفياً كبيراً ؛ وقد تناول هذه الناحية من حياة الكاتب الكبير ، مسيو بول سوشون ، بمناسبة الذكرى الخمسينية لوفاته ، فقال : إن هوجو قد مارس خلال حياته ثلاثة أنواع من الصحافة : الصحافة الأدبية ، والصحافة السياسية ، والصحافة الخبرية . وقد بدأ هوجو حياته الصحفية فى جريدة « كونسر فاتير لترير » ، وكان يكتب فيها فصولاً نقدية ، أثارت إعجاب النقدة يومئذ ، ووصف ادموند بيريه يومئذ كاتبها بما يأتى : « صحفى وناقد ، كانت لذعاته الأولى لذعات أستاذ مبرز ؛ وعند هذا الفتى الذى لم يجاوز الثامنة عشرة موهبة نثرية لا تقل عن موهبته الشعرية . ومما يلفت النظر لأول وهلة سعة معارفه الأدبية ، فهو يكاد يستوعب كل شعراء العصر القديم . ثم الشباب ! وهذا هو الذى يفيض على صحف « الكونسر فاتير لترير » سحراً لا يقاوم »

ولما صدرت فى سنة ١٨٠٩ أول طبعة من مؤلفات شينيه ، كتب هوجو فى التعليق عليها أن نزعة شعرية جديدة قد ولدت ، ولما صدر ديوان « التأملات » استقبله بحماسة وترحاب

أما فى الصحافة السياسية فان هوجو لم يرتفع إلى هذا المدى وقد أبان مسيو سوشون فى بحثه وجوه الضعف التى كانت تغلب على الشاعر الكبير فى هـذا المضار . بيد أن هوجو كان من الناحية الخبرية صحفياً لا يجارى . وقد كان يقدم أخباره للجمهور تحت عنوان « أشياء رؤيت » . وقد ظهرت مجموعة منها بعد

وفاته تحت هذا العنوان ، وفيها يقيد الحوادث التي شهدها خلال حياته وخواص العظماء الذين لقيهم

تلك صفحة من حياة هوجو لم تأخذ حقها من التعريف في حياة الشاعر الكبير

آثار قديمة في سوريا

كشفت الحفريات الأثرية التي يقوم بها العلامة الأثري الفرنسي أندريه بييرو في سوريا على مقربة من بلدة أبي كمال عن آثار هامة ترجع إلى نحو ثلاثة آلاف عام قبل المسيح ، وتدل على أن حضارة زاهرة قامت في ذلك العهد في تلك الأنحاء ، وتدل النصوص والنقوش التي عثر عليها أن هذه المنطقة كانت منزل الحيثيين الذين استطاعوا أن يقاوموا طويلاً غزوات البابليين والمصريين ، أما الآثار المكتشفة فهي عبارة عن بقايا قصر تبدو منه مراكزه الوسطى ، ويلوح أنه كان مقراً ملوكياً ، وملاذاً للكبراء ومركزاً لبعض الصناعات التي كانت زاهرة في ذلك العصر ، وهنالك مايدل على أن حصونه التي كانت محيطة به قد قوضت ، وأن حمورابي زعيم البابليين قد اقتحمها وأحرق القصر

ومن الآثار الغريبة التي اكتشفت فصل حقيقي من فصول التعليم بمقاعده وأدراجه ، مما يدل على أنه كان مدرسة يؤمها الشباب . وتدل مواقع القصر في مجموعها على أن كبراء هذا العصر كانوا يتمتعون بضروب من الرفاهة والترف ، لم تعرفها العصور الوسطى في أوربا ؛ وتتخلله طرق مستقيمة ذات زوايا قائمة ، وسلالم داخلية كبيرة ، ومخازن للمؤن ، ومجار منظمة تحمل المياه والفضلات إلى خارج المدينة ، ووجدت في معظم الأبنية المجاورة آثار حمامات وأحواض للاستحمام صنعت من الفخار المحروق

برنارد شو في التاسعة والسبعين

احتفل الكاتب الانكليزي الأشهر جورج برنارد شو أخيراً ببلوغه التاسعة والسبعين من عمره ، وذلك في بلده ومسقط رأسه هرتفوردشير . وفي يوم الاحتفال بمولده اعتكف الكاتب الشهير واحتجب طول الصباح في مكتبه ؛ وعند الظهر أعلن أنه قد انتهى من كتابة الفصل الأول من قطعة مسرحية جديدة ، وقال إنه سيعالج فيها موضوعاً جديداً هو « الحب »

حول كتاب قواعد التحديث للقاسمي

أليس من الحق وقد كتب عن هذا الكتاب كاتبان من أكبر كتاب العربية في كبرى مجلاتها ، وكان السبب في هذه الفصول الممتعة ، وهذه المساجلات الأدبية الطريفة بين أمير البيان الأمير شكيب أرسلان ، ومؤرخ الشام وكاتبها العلامة محمد بك كرد علي أن ننوه في (الرسالة) بفضل هؤلاء الشباب الغير على الدين واللغة والثقافة الاسلامية الذين ألفوا « مكتب النشر العربي » ونشروا طائفة صالحة من كتب الفلسفة والحديث للغزالي وابن الطفيل والقاسمي وغيرهم ، وأنجزوا في مدة قليلة مالم ينجز مثله سواهم في برهة طويلة ؟

أليس من الحق أن نشكر للسادة الأذكياء المثقفين العاملين : ظافر القاسمي ، وداود التكريتي ، وعصام الانكليزي ، أعضاء « مكتب النشر العربي » قيامهم بهذا الغرض الذي قصرنا جميعاً في القيام به ؟ وثباتهم على تأديته على قلة التشجيع ، ورقة الحال ، وشدة الزمان ؟ (متأدب)

ملكة الجمال في سوريا ولبنان

تقوم الزميلة جريدة لزيكو الغراء بتنظيم مباراة الجمال التي كلفت القيام بهذه المهمة لتشترك ملكة الجمال في سورية ولبنان بمباراة الجمال في مدينة بروكسل وقد تقرر أن تقام حفلة كبرى في فندق بلودان يوم الخميس المقبل لهذه الغاية وتألفت لجنة من السيدة عقيلة رئيس الجمهورية والسيدة عقيلة وزير المعارف والسيدة عقيلة مدير البرق والبريد العام على أن يقوم بسكرتارية اللجنة السيد باسيل مكرديج مدير المطبوعات في وزارة الداخلية لانتخاب ثلاث أوانس واحدة من دمشق والثانية من حلب والثالثة من اللاذقية من بين المتباريات ثم تشترك الأوانس الثلاث في حفلة مباريات الجمال في صوفر مع الأوانس اللبنانيات اللواتي ينتخبن فيها الآنسة التي تتربع على عرش الجمال في سوريا ولبنان

وستكون هذه الحفلة تحت رعاية رئيس الجمهورية . (الأيام)

أقول : هذا بعض ما أنشيء له فندق بلودان الذي لم يعص الله في الشام بمثل انشائه نبعث به إلى (الرسالة) بلا تعليق

(متأدب)

الكتب

كتاب الأموال

في ٦١٦ صفحة

لأبى عبيد القاسم بن سلام (١)

للأستاذ محمد بك كرد على

ولد أبو عبيد فى هراة وأبوه مملوك رومى ، وتخرج فى بغداد على أئمة وقته وروى عنه أئمة مذكورون ، وكان آية فى النحو واللغة والحديث والفقه ، وعدّ أعلم رجال عصره بلغات العرب ، قال ابراهيم الحربى :

رأيت ثلاثة تعجز النساء أن تلد مثلهم : رأيت أبا عبيد ما أمثله إلا بجبل نفخ فيه روح ، ورأيت بشر بن الحرث فما شبهته إلا برجل عجن من قرنه إلى قدمه عقلاً ، ورأيت أحمد بن حنبل فرأيت كأن الله قد جمع له علوم الأولين من كل صنف ، يقول ما يشاء ويمسك ما يشاء . وروى الناس من الكتب المصنفة لأبى عبيد بضعة وعشرين كتاباً فى القرآن والفقه وغريب الحديث والغريب المصنف والأمثال ومعانى الشعر وكتاب الأموال ، والغريب المصنف زعموا أنه أجل كتبه

كان أبو عبيد خاصاً بعبد الله بن طاهر الوزير المشهور أغناه عما أعطاه ، ولقد بعث أبو دُلف إلى عبد الله بن طاهر يستهديه أبا عبيد شهرين ، فأنفذه إليه فأقام شهرين ، فلما أراد الانصراف وصله بثلاثين ألف درهم فلم يقبلها . وقال : أنا فى جنبة رجل لم يحوجني إلى صلة غيره ، فلما عاد إلى ابن طاهر وصله بثلاثين ألف دينار . فقال : أيها الأمير قد قبلتها ، ولكن قد أغنيتني بمعروفك وبرك ، وقد رأيت أن أشترى بها سلاحاً وخيلاً وأوجه بها إلى الثغر ليكون الثواب متوفراً على الأمير ففعل ، وهذا من العلم الحقيقى والخلق الكامل ، وعزة النفس إذا فقدت من العلماء خاصة صار العلم تهريجاً ومهزلة

قالوا : ولما عمل أبو عبيد كتاب الغريب عرضه على عبد الله ابن طاهر فاستحسنه وقال : إن عقلاً بعث صاحبه على عمل مثل هذا الكتاب لحقيق ألا يخرج عنا إلى طلب المعاش . فأجرى له عشرة آلاف درهم فى كل شهر ، قال أبو عبيد : كنت فى تصنيف هذا الكتاب أربعين سنة ؛ وربما كنت أستفيد الفائدة من أفواه الرجال فأضعها فى موضعها من الكتاب ، فأبيت ساهراً فرحاً منى بتلك الفائدة ، وأحدكم يجيئني فيقيم عندى أربعة أشهر أو خمسة أشهر فيقول قد أقمت الكثير . وكان أبو عبيد يقسم الليل أثلاثا فيصلى ثلثه وينام ثلثه ويصنف ثلثه . وذكر من ترجموا له أنه كان فاضلاً فى دينه وفى علمه ، ربانياً متفننا فى أصناف علوم الاسلام ، صحيح النقل لم يطعن عليه فى شىء من أمره ودينه

غلب على أبى عبيد جمع المتفرق فى الكتب وتفسيره وذكر الأسانيد ، وصنف المسند على حدته ، وأحاديث كل رجل من الصحابة والتابعين على حدته ، وأجاد تصنيفه ، فرغب فيه أهل الحديث والفقه واللغة لاجتماع ما يحتاجون اليه فيه ، وكتابه الوحيد الذى ظهر بالطبع كتاب الأموال وهو كما وصفوه من أحسن ما صنف فى الفقه وأجوده . جرى فيه على أسلوب قدماء المؤلفين من إيراد الرواية والسند فى الأحاديث ، لكنه لا يطيل فى ذكر الرواة وينسب الحديث إلى آخر راوية معتمد ، ثم يشرع فى شرح ما أبهم وتفسير ما أعضل من الأحكام ، يرجح ما هو أولى بالترجيح ، ويبين عن رأيه بصراحة . بأسلوب محكم سلس ينم عن إحاطته بالأقوال الصحيحة المأثورة عن صاحب الشرع ، ثم يشير إلى عمل الصحابة والتابعين من بعده فى أحكام الأموال وصنوفها والفىء والصدقات والجزية وفتوح الأرضين صلحاً أو عنوة ، وما يتبع ذلك من الأحكام التى قال بها القرآن أو فسرتها

(١) المتوفى سنة ٢٢٤ هـ

السنة أو عدلها بعض الصحابة بحسب الحال

فقد ذكر في باب ما لا يجوز لأهل الذمة أن يحدثوا في أرض العنوة وفي أمصار المسلمين وما لا يجوز قول عمر (ض) « لا كنيسة في الاسلام ولا خصاء » وقول عمر بن عبد العزيز: « لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار ، ولا تحدثوا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار » ، فقال أبو عبيد : أراه يعني الكنائس والبيع وبيوت النيران يقول : لا ينبغي أن تكون مع المساجد في أمصار المسلمين . قال أبو عبيد ، فهذا ما جاء في الكنائس والبيع وبيوت النار ، وكذلك الخمر والخنازير قد جاء فيهما النهي عن عمر ، ثم قال : وأما وجوه هذه الأحاديث التي منع فيها أهل الذمة من الكنائس والبيع وبيوت النيران والصليب والخنازير والخمر أن يكون ذلك في أمصار المسلمين خاصة ، وبيانه في حديث ابن عباس . حدثنا أبو عبيد قال : سمعت علي بن عاصم يحدث عن أبي علي الرحبي عن عكرمة عن ابن عباس قال : أيما مصر مصّرته العرب ؛ فليس لأحد من أهل الذمة أن يبنوا فيه بيعة ولا يباع فيه خمر ، ولا يقتنى فيه خنزير ولا يضرب فيه بناقوس ، وما كان قبل ذلك فحق على المسلمين أن يوفوا لهم به . قال أبو عبيد : فقوله كل مصر مصرته العرب يكون التمصير على وجوه : فمنها البلاد التي يسلم عليها أهلها مثل المدينة والطائف واليمن ، ومنها كل أرض لم يكن لها أهل فاختطها المسلمون اختطاطاً ، ثم نزلوها مثل الكوفة والبصرة وكذلك الثغور ، ومنها كل قرية افتتحت عنوة ، فلم ير الامام أن يردها إلى الذين أخذت منهم . ولكنه قسمها بين الذين افتتحوها كفعل رسول الله (ص) بأهل خيبر . فهذه أمصار المسلمين التي لا حظ لأهل الذمة فيها ، إلا أن الرسول كان أعطى أهل خيبر اليهودَ معاملة لحاجة المسلمين وكانت إليهم ، فلما استغنى عنهم أجلاهم عمر وعادت كسائر بلاد الاسلام : فهذا حكم أمصار العرب ، وإنما نرى أصل هذا من قول رسول الله (ص) أخرجوا المشركين من جزيرة العرب . وفي ذلك آثار ثم ساق الأحاديث ، والمأثور عن عمر في جلاء غير المسلمين من جزيرة العرب ، وذكر بلاد الصلح كهَجَر والبحرين وأيلة ودومة الجندل وأذرُح . وذكر أحكام البلاد التي فتحها عمر كالشام ومصر والعراق الخ

ومما ذكر ، وهو ما نطيل بنقله إرادة الوقوف على طريقته في تأليفه ، (ص ١٦٩) أن عمر بن الخطاب استعمل عُمَير ابن سعيد أو سعد على طائفة من الشام ، فقدم عليه قدمة فقال : يا أمير المؤمنين ، إن بيننا وبين الروم مدينة يقال لها عرب السوس وإنهم لا يخفون على عدونا من عوراتنا شيئاً ، ولا يظهروننا على عوراتهم ، فقال له عمر : فاذا قدمت فخيرهم بين أن تعطيهم مكان كل شاة شاتين ، ومكان كل بعير بعيرين ، ومكان كل شيء شيئين فان رضوا بذلك فأعطهم وخرّبها ، فان أبوا فانبذ إليهم وأجّلهم سنة ثم خرّبها ، فقال : اكتب لي عهداً بذلك فكتب له عهداً ، فلما قدم عمر عليهم عرض عليهم ذلك فأبوا ، فأجلهم سنة ثم أخرّبها . قال أبو عبيد : وهذه مدينة بالثغر من ناحية الحدث يقال لها عرب سوس وهي معروفة هناك — ومعروفة لعهدنا بهذا الاسم أيضاً — وقد كان لهم عهد فصاروا إلى هذا ، وإنما نرى عمر عرض عليهم ما عرض من الجلاء ، وأن يعطوا الضعف من أموالهم ، لأنه لم يتحقق ذلك عنده من أمرهم ، أو أن النكث كان من طوائف منهم دون إجماعهم ، ولو أطبقت جماعتهم عليه ما أعطاهم من ذلك شيئاً إلا القتال والمحاربة ، وقد كان نحوٌ من هذا قريباً الآن في دهر الأوزاعي بموضع بالشام يقال له جبل لبنان ، وكان ناس من أهل العهد فأحدثوا حدثاً ، وعلى الشام يومئذ صالح بن علي فحاربهم وأجلاهم ، فكتب الأوزاعي فيما ذكر لنا محمد بن كثير برسالة طويلة منها : « قد كان من أجلاء أهل الذمة من أهل جبل لبنان ، مما لم يكن تمالأ عليه خروج من خرج منهم ، ولم تُطبِق عليه جماعتهم ، فقتل منهم طائفة ورجع بقيتهم إلى قراهم . فكيف تؤخذ عامة بعمل خاصة فيخرجون من ديارهم وأموالهم . وقد بلغنا أن من حكم الله جل وعز أنه لا يأخذ العامة بعمل الخاصة ولكن يأخذ الخاصة بعمل العامة ، ثم يبعثهم على أعمالهم ، فأحق ما اقتدى به ووقف عليه حكم الله تبارك وتعالى ، وأحق الوصايا بأن تحفظ وصية رسول الله (ص) ، وقوله : من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه ، ومن كانت له حرمة في دمه فله في ماله والعدل عليه مثلها ، فانهم ليسوا بعبيد فتكونوا من تحويلهم من بلد إلى بلد في سعة ، ولكنهم أحرار أهل ذمة الخ » . وكتاب الأوزاعي

هذا نقله البلاذرى فى فتوح البلدان مع اختلاف يسير

وهكذا يمضى المؤلف فى تأليفه ومعالجة فصول كتابه الممتع . يأتى بالآثار المشهورة الصحيحة على مثل هذه الطريقة السهلة ، وفيها جمل من الأحكام التى استخرجها الحكام بعد عهد صاحب الشرع الأعظم . وقد أورد كثيراً من الكتب والمعاهدات والعقود والاقطاع ، وذكر فصولاً فى الصدقات والغنائم والزكوات وثمار الأرضين وما يجبى منها ومالا يجبى والمعادن والركاز والمكاييل والمكوس والعشور ومخارج الصدقة وسبيلها التى توضع فيها والوقف ، إلى غير ذلك من الأبواب بحيث لم يترك شيئا مما يحتاج اليه من يريد الوقوف على أحكام كل ذلك فى الاسلام ، وإن كان أكثره ، ويا للأسف أصبح يتلى اليوم للعلم به فقط ، أو التبرك بسيرة السلف الصالح وترداده لمعرفة تاريخ تشريعهم

ومما قال فى اسقاط الجزية عمن أسلم : وإنما احتاج الناس إلى هذه الآثار (عن الصحابة وغيرهم) فى زمن بنى أمية ، لأنه يروى عنهم أو عن بعضهم أنهم كانوا يأخذونها منهم وقد أسلموا ، يذهبون إلى أن الجزية بمنزلة الضرائب على العبيد ، يقولون فلا يسقط اسلام العبد عنه ضريبته ، ولهذا استجاز من استجاز من القراء الخروج عليهم ، وقال إن عمر بن عبد العزيز فرض على رهبان الديارات على كل راهب دينارين ، ولا أرى عمر فعل هذا إلا لعلمه بطاقتهم له ، وأن أهل دينهم يتحملون ذلك لهم ، كما أنهم يكفونهم جميع مؤوناتهم ؛ وقال إن رسول الله (ص) استحل دماء بنى قريظة لمظاهرتهم الأحزاب عليه ، وكانوا فى عهد منه ، فرأى ذلك نكثاً لعهدهم وإن كانوا لم يقتلوا من أصحابه أحدا ، ونزل بذلك القرآن فى سورة الأحزاب ، قال وكذلك آل أبى الحقيق رأى كتمانهم إياه فاشترطوا له ألا يكتموه نكثاً ، وقد حكم بمثل ذلك عمرو بن العاص بمصر

وقال فى القريات التى أقطعها الرسول لتميم الدارى فى فلسطين : إنها أرض معمورة لها أهل فانما ذلك على وجه النفل له من رسول الله (ص) ، لأن هذا كان قبل أن تفتح الشام ، وقبل أن يملكها المسلمون ، فجعلها له نفلا من أموال أهل الحرب إذا ظهر عليها ، وهذا كفعله بابن بقيلة عظيم الحيرة حين سأله إياها الشيبانى ، فجعلها له بمثل افتتاح الحيرة ، فأمضاها له خالد ابن الوليد حين ظهر عليها ، وكذلك امضاء عمر لتميم حين افتتح فلسطين . ومما قال فى الأقطاع : « وأما إقطاع أبى بكر طلحة وعيينة ، وما كان من انكار عمر ذلك وامتناعه من الختم عليه ، فلا أعلم له مذهبا إلا أن يكون رأى عمر أنه كان يومئذ يكره الأقطاع ولايراه ، ألا تسمع قوله لطلحة : « أهذا لك دون الناس » ثم رأى بعد ما أفضى الأمر اليه غير ذلك ، فقد علمنا أنه قد أقطع غير واحد فى خلافته ، وهذا كالرأى يراه الرجل ثم يتبين له الرشد فى غيره فيرجع اليه ، وهذا من أخلاق العلماء قديما وحديثا »

ومما قال فى السبب الذى دعا إلى ضرب الدراهم : قال أبو عبيد : سمعت شيخا من أهل العلم بأمر الناس ، كان معنياً بهذا الشأن ، يذكر قصة الدراهم وسبب ضربها فى الاسلام ، وقال : إن الدراهم التى كانت نقدَ الناس على وجه الدهر لم تزل نوعين : هذه السود الوافية ، وهذه الطبرية العُتُق ، فجاء الاسلام وهى كذلك ، فلما كانت بنو أمية وأرادوا ضرب الدراهم نظروا فى العواقب فقالوا : إن هذه تبقى مع الدهر ، وقد جاء فرض الزكاة « إن فى كل مائتين أو فى خمس أواقٍ خمسة دراهم » والأوقية أربعون ، فأشفقوا إن جعلوها كلها على مثال السود ؛ ثم فشا فشواً بعد لا يعرفون غيرها ، أن يحملوا معنى الزكاة على أنها لا تجب حتى تبلغ تلك السود العظام ، مائتين عدداً فصاعداً ، فيكون فى هذا بخس للزكاة ؛ وأشفقوا إن جعلوها كلها على مثال الطبرية أن يحملوا المعنى على أنها إذا بلغت مائتين عدداً حلت فيها الزكاة ، فيكون ذلك اشتطاطاً على رب المال ، فأرادوا منزلة بينهما يكون فيها كمال الزكاة من غير اضرار بالناس ، وأن يكون مع هذا موافقا لما وقت رسول الله (ص) فى الزكاة ؛ إلى أن قال بعد شرح ما عملوه بشأن الدراهم : فمضت سنة الدراهم على هـذا واجتمعت عليه الأمة فلم تختلف أن الدرهم التام هو ستة دوانيق ، فما زاد أو نقص قيل درهم زائد أو ناقص ، فالناس فى زكاتهم بحمد الله ونعمته على الأصل الذى هو السنة والهدى لم يزيغوا عنه ولا التباس فيه ، وكذلك المبايعات والديات على أهل الورق ، وكل ما يحتاج إلى ذكرها فيه ، هذا

كما بلغنا ، أو كلام هذا معناه اه »

ومما روى فى صدقة الحلى من الذهب والفضة : « إن عبد الله ابن عمرو حلّى ثلاث بنات له بستة آلاف دينار ، فكان يبعث مولى له جليداً كل عام فيخرج زكاته منه » ، ومما قال : « وشرائع الاسلام أمهات لا يقاس بعضها ببعض ، لأن لكل واحدة حكماً غيرُ حكم الأخرى » ، ونقل كثيراً من كتب عمر بن عبد العزيز تأييداً للأحكام التى وردت فى القرآن وفسرتها السنة ، وكان عمل الراشدين ومن بعدهم سنة متبعة فى الأموال ، ومنها كتب عمر بن عبد العزيز : أن اقضوا عن الغارمين ، فكتب إليه : إنا نجد الرجل له المسكن والخادم والفرس والأثاث . فكتب عمر : لابد للمرء المسلم من مسكن يسكنه ، وخادم يكفيه مهنته ، وفرس يجاهد عليه عدوه ، ومن أن يكون له الأثاث فى بيته ، نعم فاقضوا عنه فانه غارم »

ويغتبط قارئ كتاب الأموال أن يرى نور العقل يتخلل كلام أبى عبيد ، وأن يقرأ فيه صورة جميلة من تأليف القوم فى القرن الثانى وأوائل الثالث بهذه البلاغة الخالية من التكلف . ولو كتبت العلوم الاسلامية كلها على المثال الذى كتب به علماء القرون الأولى لاقتصرت على طالبها طرق التعليم . ولنجا الناس من استظهار تلك الدساتير التى جمد من اقتصر عليها ، وسار من تفلت من قيودها سيراً متساوقاً وصل به إلى الغاية ، ويشبه كتاب الأموال فى تأليفه تأليف يحيى بن آدم فى الخراج ، ولا يشبه كتاب الخراج لأبى يوسف بأسلوبه ، لأن هذا عبارة عن رسالة شرعية سياسية إدارية كتبها إمام عظيم لامام عظيم فى إصلاح مملكته ، وأورد له الأحكام للتدليل على ما يقول ، ولم يكتبها للتعليم والتفقيه ، وفى كتاب الأموال كثير من الفصح والشوارد اللغوية والألفاظ يمكن إحياؤها وهى اليوم منسية أو فى حكم المنسى

ويسرنى أن ناشر كتاب الأموال الأستاذ محمد حامد الفقى هو من علماء الازهر ، وقد جوّد فى التصحيح والتعليق عليه ، وإيراد الروايات المختلفة ، وطبعه على نسختين مصرية وشامية ، على ما كان وقف على طبع غيره مثل : « تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول » لابن الديبع الشيبانى (٩٤٤ هـ) ، ويلاحظ أنه كان من المزيد للكتاب لو أن ناشره الأستاذ الفقى وضع له فهارس على نحو ما فعل الأستاذ أحمد محمد شاكر لما أعاد نشر كتاب الخراج ليحيى بن آدم القرشى ، فانه حلاه بالفهارس على مثال علماء المشرقيات عندما يعانون نشر كتبنا ، فيقربون فوائدها بما يؤلفون لها من فهارس بأسماء الرجال والبلدان وغير ذلك ، وقد يضعون للكتاب الواحد خمساً أو سبعاً من الفهرستات المختلفة تيسيراً على القارئ ، وهذا ما بدأت به دار الكتب المصرية فى مطبوعاتها من الأمهات المعتبرة التى تتحف بها العالم العربى الحين بعد الآخر

محمد كرد على